روايات الهلال للأولاد والبنات

سلسلة تاريخ الإسلام

جرجي زيدان



أرمانوسة المصرية

قبل أن تقرأ ..

«جرجى زيدان» مفكر لبنانى المولد مصرى الإقامة عروبى الهوى.. إسلامى الثقافة.. عاش ثلاثة وخمسين عاماً فقط (١٨٦١ - ١٩١٤) ، قدم خلالها للفكر العربى أكثر من خمسين كتابا فى مجالات الفكر كافة.. يأتى فى مقدمتها «روايات تاريخ الإسلام» (٢٣ رواية) ، والتى استطاع من خلالها أن يقدم التاريخ الإسلامى بسهولة ويسر، كما اتسمت رؤيته بالإنصاف والعدل ، وهو الكاتب المسيحى المستنير الذى استطاع أن يضع يده على عناصر التسامح والعقلانية فى تاريخ الإسلام، وحوّل هذا التاريخ من مادة صماء إلى حكايات ووقائع وشخصيات شديدة الحيوية ، مما جعل هذه الروايات تحقق نجاحات كبيرة وإقبالاً شديداً بين مختلف فئات المجتمع داخل مصر وخارجها عند نشرها مسلسلة على صفحات مجلة «الهلال» بداية من السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر.. ولكل ذلك فنحن نعيد تقديم هذه الروايات للأجيال الجديدة «بشكل جديد» لما لها من أهمية فكرية وتاريخية ، ولما تحمله بين طياتها من إجابات على كثير من علامات الاستفهام التى تشغلنا فى الوقت الحالى...

رئيس التحرير

المقدمــــة

هذه هى رائعة جرجى زيدان «أرمانوسة المصرية»، وهى قصة الفتح الاسلامى لمصر، يرويها جرجى زيدان من داخل مصر حيث تدور الأحداث على الجانب المصرى.

ويبدأ جرجى زيدان القصة فيصف مصر تحت ظل الحكم الرومانى، ويعيش مع الشعب المصرى وتاريخه الذى تقلب فى هذه الفترة بين الحكم الفارسى والحكم الرومانى على تداول الحرب بين الفرس والروم فى ذلك الزمان قبل الإسلام، وكراهية المصريين لكل من الحكمين، خاصة الحكم الرومانى الذى اضطهد الشعب وأذله رغم اشتراك الشعبين فى ديانة واحدة هى المسيحية، لكن اختلاف المذهب المسيحى حول طبيعة المسيح، طبيعة الهية واحدة أو طبيعتين إلهية وبشرية، أجج نير الاضطهاد للشعب المصرى الذى يصر رغم صنوف الاضطهاد على عقيدته التى رآها صحيحة، حتى لقد بلغ الاضطهاد طرد البطريرك المصرى «بنيامين» إلى حيث لا يعلم أحد إلا القليلون مكانه.

وكان المقوقس حاكم مصر من قبل الدولة الرومانية رغم أنه كان يونانى الأصل، والدولة الرومانية هى التى ولته حكم مصر إلا أنه كان متعاطفاً مع المصريين يحبهم ويحبونه لصفاء نفسه وكراهيته للظلم كما تعاطف من قبل مع خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان قد أرسله إليه، وكان رده الاعتذار الرقيق عن عدم الدخول فى الإسلام ويعث إلى النبى صلى الله عليه وسلم بجاريتين هما مارية القبطية وأختها (كان معهما أخوهما هدية أيضا) وعدة ثياب مصرية وبعض العسل.

عرف الناس فى مصر الاسلام وتسامعوا بالفتوحات الاسلامية للشام والعراق، ويسود عرض الاسلام عرضا منصفا من خلال هذه الرواية إلى درجة أن المصريين كانوا يفضلون ان لو جاء العرب إلى مصر كما جاءوا إلى الشام والعراق.

وبالفعل لم يلبث المصريون أن عرفوا أن ثمة حملة موجهة إلى مصر يقودها عمرو بن العاص.

وهنا يعرض جرجى زيدان انطباع المصريين عن الاسلام

والمسلمين، وأنهم بعد أن فتحوا الشام أمنوا النصارى على أموالهم وأعراضهم وأباحوا لهم الصلاة فى معابدهم لا يعارضهم أحد فى ذلك، وأنهم يحترمون أهل الكتاب ويجلون رهبانهم ويمتثلون بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة أهل مصر فقد أوصى بهم خيراً وقال: «ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم فيكم صهرا وذمة».

وكانت مراكز القوة - كما تبدو واضحة فى القصة - وهى عرض أمين للتاريخ - فى المقوقس وهو الحاكم ويبدو أنه كان الحاكم المدنى، ولكن يوجد القائد الرومانى لحامية الجند الرومان فى مصر وهو «الأعيرج» وابنه الشاب القائد «أركاديوس»، وكان المقوقس والأعيرج على اختلاف الموقف فبينما كان المقوقس متعاطفا مع الشعب - كما قلنا - يميل إلى العرب ويسهل قدومهم إلى مصر، كان الأعيرج القائد الرومانى ضد هذا الموقف، يدافع لبقاء مصر تابعة للرومان.

وقد عرض جرجى زيدان رسائل سرية متبادلة بين عمرو بن العاص والمقوقس فالمقوقس يرسل إلى عمرو مشاعره القلقة على شعبه المصرى ، ورسائل عمرو تحمل مشاعره نحو أهل الكتاب عامة ونحو المصريين خاصة، يطمئنهم على حقوق المصريين فى عنق جميع المسلمين مستشهداً بآيات القرآن ووصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حيث يقول الله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون»، ومن وصايا أبى بكر رضى الله عنه يوصى المسلمين وقد ساروا إلى الجهاد «وستمرون على قوم فى الصوامع رهبان فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم»، فليطمئن القبط. لهم مالنا وعليهم ماعلينا وإنما جئنا لمحاربة الروم.

والشعب من وراء ذلك يتسامع عن شهامة العرب، والحفاظ على الاعراض والأموال والأرواح وعدم حرصهم على القتال وسفك الدماء وأن لو ساد العرب العالم لما كانت هذه الحال.

وجرجى زيدان يخلص فى عرض ذلك كله اخلاصاً يستدعى الاحترام حتى أنه يتغلغل فى أعماق نفس القائد الرومانى الحريص على دولته الرومانية حيث ينقل على لسان «أركاديوس» ان العرب لايغدرون، ولا يفتكون بأسراهم، وليسوا متعطشين إلى الدم، حتى أن عمرا رضى الله عنه رفض أن يهدم خيمته التى بناها فى الفسطاط

حتى لايزعج أو يروع بعض الطيور واليمام التى عششت وأفرخت فى هذه الخيمة.

كل ذلك مكن لعمرو بن العاص أن يستولى على الفرما وبلبيس وحصن بابل (الفسطاط) ويفتح الاسكندرية دون مقاومة تذكر.

ويتجلى إخلاص جرجى زيدان للحقيقة - رغم القالب الروائى العاطفى المزدحم بالعاطفة - حيث يخرج من يفرغ من قراءة روايته الرائعة عن دخول الاسلام فى مصر أن الاسلام لم يأت إلى مصر استعماراً وتوسعاً فى الأرض، وإنما جاء رسالة انقاذ للمصريين ورسالة عدل مع الرومان، ولم يفتح العرب مصر لأن الدولة الرومانية كانت مفككة فقط أو ظالمة، ويكفى الظلم أن يهدم الدول، بل لأن الإسلام كما رآه المصريون وكما هو فى حقيقته عدل، ورحمة، وحرية ومساواة، للجميع.

بل ان جرجى زيدان لاينسى فى زحام الأحداث التاريخية والمواقف السياسية والعاطفية، التى تفيض بها روايته حتى لتشد القارىء شداً، أن يؤكد على موقفين مهمين خلال الفتح الإسلامى لمصر تعد شهادة عدل للإسلام والعرب.

الموقف الأول وربما يبدو أنه خارج عن أحداث الرواية، الا أن المؤلف يأتى به فى سياقها منسجماً مع هذا السياق وهو أن العرب لم يحرقوا مكتبة الاسكندرية خلال الفتح الإسلامى للإسكندرية، على عكس ما روج كثير من المستشرقين المغرضين ويؤكد جرجى زيدان أن المكتبة كانت قد احرقت قبل الفتح العربى بزمان طويل فلا علاقة لعمرو ولا لعمر بهذه الحادثة.

الموقف الثانى : ان جرجى زيدان كان حريصاً طول الرواية على احترام الإسلام للنساء، فلم يزعج الفاتحون المسلمون النساء خلال هذا الفتح، فلم يروع راهبات «الكنيسة المعلقة»، ولم يخرجهن من مكانهن فى كنيستهن، بينما كان الروم قد أخرجوهن منها فأعادهن المسلمون. ولم يذكر أن سبى العرب مصرية خلال الفتح، فضلاً عن حفاظ عمرو واهتمامه شخصياً بابنة المقوقس وكل من يلوذ بها من نساء أو رجال.

إن «جرجى زيدان» عرض الفتح العربى الإسلامى لمصر.. فتحا للقلوب والعقول أكثر مما كان فتحا للأرض والديار.

عبد المعطى بيومى

الرومانيون والاقباط

فتح الرومانيون وادى النيل ، وأقاموا فيه قرونا ظهر فى أثنائها الدين المسيحي وانتشر فى العالم .. ودخل الديار المصرية ، فاعتنقه المصريون وهم الأقباط، ثم اعتنقته الدولة الرومانية، ولكن ما لبثت الحال مدة حتى حدث خلاف دينى بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية ، وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية فعرفت ديانة الرومانيين بـ«الملكية» وديانة المصريين «باليعقوبية». وتعاظم ذلك الخلاف حتى تمكنت الضغائن بين الرومانيين وهم السلطة الحاكمة ، والأقباط وهم الشعب المحكوم ، فأدى ذلك إلى استبداد الرومانيين بالأقباط ونفور الأقباط من الرومانيين ، وكان الرومانيون يسومون المصريين مر العذاب ، فلا تفوتهم فرصة للإيقاع بهم والانتقام منهم .

وفى أوائل القرن السابع للميلاد كان على المصريين والٍ يونانى الأصل اسمه المقوقس حنا بن قرقت ، وكان يميل للوطنيين قائلا بقولهم داعيا إلى دعوتهم. وكانت إقامته فى الاسكندرية كسائر ولاة الرومانيين إلى ذلك العهد ، لأنها كانت عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة . ولم تكن اذ ذاك القاهرة ولا مصر القديمة ولا الفسطاط .. بل كان فى مكانها بساتين وغياض يتخللها بعض الأديرة والكنائس وقليل من البيوت مبعثرة بين المقطم والنيل، وإلى جنوبها بلدة صغيرة اسمها بابل بناها الفرس عند قدومهم إلى هذه الديار قبل الميلاد وسموها باسم عاصمة بلادهم .

ولم يكن للأقباط هم فى تلك الأيام إلا التخلص من الرومانيين والتحدث عن ظلمهم واستبدادهم ، ولكنهم كانوا لا يستطيعون المجاهرة بعداوتهم خوفا من سخطهم وزيادة الضغط عليهم .

أرمانوسة

وكان للمقوقس ابنة بديعة الحسن فى ريعان الشباب جمعت بين الجمال الرومانى واللطف المصرى اسمها أرمانوسة ، وكان والدها

يحبها كثيرا لأنه لم يكن له سواها إلا ولد اسمه ارسطوليس، فأباح لها التصرف فى بيته.

وكان لفرط جمالها قد سمع بها هرقل امبراطور الرومانيين فخطبها لابنه قسطنطين، وشاع ذلك وذاع حتى تحدث به الخاص والعام، وحسدها الناس عليه .. لكنها لم تكن راضية بهذه الخطبة لأسباب لم تكن تظهرها لأحد، لئلا يصيبها أو يصيب والدها سوء.

وكانت أرمانوسة تعيش فى قصر والدها بمنف فى البر الغربى من النيل وراء الجيزة .. والقصر عظيم هائل، أقيم بأنقاض بعض هياكل المصريين القدماء ..

وكانت حاشية المقوقس كلها من المصريين والمصريات وبعض الأحباش، وليس فيهم أحد من الروم.

فى يوم من أيام تلك السنة قضته أرمانوسة فى قصرها متنعمة تارة فى غرفتها وطورا فى الحديقة، حتى أمسى المساء وطلع البدر وكانت ليلة صافية الجو، فأحبت الخروج للتنزه فى النيل، فطلبت من خادمتها الخاصة واسمها بربارة أن تأمر بعض الخدم بإعداد قارب تنزل فيه .. فأعدوه لها.

وكان مسير القارب بجانب الشاطىء، وجلست أرمانوسة فى صدره وجواريها بين يديها يعزفن على الآلات، ولكن أرمانوسة كانت مضطربة البال لا تبتسم إلا تكلفا، كأنها تريد نسيان ما يخامرها من الهواجس وتود الانشغال عنها بمناظر الطبيعة .. وأدركت خادمتها منها ذلك فجعلت تبالغ فى تسليتها ومحادثتها.

وبعد أن سار بهن القارب مسافة، رأت أرمانوسة أنها قد بعدت عن المدينة .. فخشيت أن تبتعد أكثر من ذلك لئلا يتعرض القارب لهجوم التماسيح، فأمرت بالرجوع .. فأدار النوتية الدفة.

استطلاع السر

ولما وصل القارب إلى منف، رسا بهن إلى جانب القصر، نزلت أرمانوسة وتجولت فى بعض طرقات الحديقة ومعها بربارة، ثم دخلتا القصر، وقد لاحظت بربارة انقباض أرمانوسة واضطراب خاطرها، فما

أن أصبحتا وحدهما فى غرفة النوم حتى بادرتها بربارة بقولها: «أستحلفك الله ياحبيبتى أن تطلعينى على سبب اضطرابك، فقد ضاق صدرى وأنا ممسكة نفسى عن السؤال حتى عيل صبرى. فلا تخفى عنى شيئا وأنت تعلمين إخلاصى لك .. لعلى أستطيع تفريج كربتك، أم أنك لا تثقين بى ؟!».

قالت: «إنى واثقة بك كل الثقة يا بربارة وأنت تعلمين ذلك .. ولكن ليس ثمة ما أخفيه عنك..».

فقطعت عليها الكلام قائلة: «كفى إخفاء ومغالطة، فقد لاحظت عليك هذا الانقباض منذ أيام، ولن أتركك حتى تخبرينى أو تطردينى من هذه الغرفة .. فلا أتجاسر بعد ذلك على سؤالك».

فأمسكتها أرمانوسة بيدها: «حاشا لى أن أهينك بمثل ما تقولين، فإنك بمنزلة والدتى .. ولكن ليس عندى ما أخبرك به، أو لعلى إذا أطلعتك عليه تضحكين منى أو تهزئين بى» فوقفت بربارة قائلة: «معاذ الله أن يصدر منى ذلك، وأنت ابنتى، فلا تخشى بأسا من مكاشفتى بما فى قلبك. إنى وحياتك كنز لأسرارك وسأكون مفرجة لكربك بإذن الله» ..

فنظرت أرمانوسة إليها بطرف عينها، وأرادت الكلام فارتج عليها، ثم قالت: «انظرى إلى هذا الباب .. هل ترين هناك أحداً من الخدم مستيقظا أم هم نيام ؟».

قالت: «لا تخافى، ليس من يتجرأ على الدنو من غرفتك، ومع هذا فإنى ذاهبة للتحقق من ذلك» قالت ذلك وخرجت.

لبثت أرمانوسة تنتظر عودتها، لكنها أبطأت.. ولما ملت الانتظار، نهضت من السرير ودنت من الشرفة وأطلت على الحديقة، فسمعت ضوضاء الناس عند الضفة فازداد اضطرابها .. فأصغت إلى ما يتكلمون به، فإذا بأصوات رجال، ولمحت عند الشاطىء قوارب عديدة، وقد خرج منها رجال يسرعون نحو القصر. فاندهشت، ولم تفهم مايحدث، وبينما هى فى ذلك إذا ببربارة قد عادت وعلى

وجهها أمارات البغتة .

فابتدرتها أرمانوسة قائلة : «ما سبب هذه الضجة ، ومن هم هؤلاء الرجال يا بربارة ؟ .. أخبريني ..» .

فقالت : «ما هى إلا موجبات سرورى وسرورك ، فإن سيدى والدك قد بعث جماعة من خاصته بمعدات الاحتفال ، ليسيروا بك إلى عين شمس تلتقون بوالدك .. لكى تسيروا جميعا إلى بلبيس ومنها إلى القسطنطينية، حيث خطيبك قسطنطين ابن الإمبراطور هرقل» ..

قسطنطين والقسطنطينية

فاضطربت أرمانوسة عند سماعها الخبر ، واشتد بها اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيها وغلب البكاء عليها .. فجعلت بربارة تتوسل إليها أن تخبرها بحقيقة الأمر إلى أن قالت : «ألعلك شعرت بالوحشة عندما علمت بالسفر وفراق والدك ومنزلك .. ألا تعلمين يا سيدتى أنك ستنتقلين من قصر إلى قصر أعظم منه ، ومن بيت مجد إلى بيت مجد أرفع» .

وكانت أرمانوسة تمسح دموعها ، فلما سمعت كلام بربارة أمسكتها من ذراعها قائلة : «لا تذكرى القصور والمنازل .. فإن السعادة ليست فى الأبنية ولا فى العواصم ولكنها فى القلوب والعواطف، دعينى يا بربارة من هذه الأوهام وعزينى بغيرها» ..

فعجبت بربارة لذلك الكلام واستغربته ولم تفهم ما وراءه ، وقالت: «بالله يا سيدتى أفصحى .. هل تكرهين الأسفار أم ..» .

فقطعت أرمانوسة الكلام قائلة : «ليس ذلك مما يكدرنى ، ولكننى لا أريد السفر إلى بلبيس والسلام» .

قالت : «وهل تكرهينها ؟ .. اخبرى والدك ليكتب إلى الامبراطور أن يكون نقلك من هنا إلى القسطنطينية رأسا» .

فصاحت أرمانوسة : «لا أحب القسطنطينية ولا ساكنيها ولا من تسمى باسمها، ولا أحب البقاء فى الدنيا من أجلها» ..

فأدركت بربارة أن سيدتها لا تريد الزواج بقسطنطين .. ولكنها

تجاهلت وأعادت السؤال بالحاح قائلة لها : «هل إلى هذا الحد تخفين مقاصدك عنى ؟ .. ألعلك لا تريدين قسطنطين ؟» .

فأجابتها على الفور : «نعم لا أريده .. لا أريده .. لا أريده»

فجعلت بربارة تخفف عنها وتهون عليها إلى أن قالت : «إذا كنت لا تريدينه ، فدعيه وشأنه .. ولا تحزنى ولا تقهرى نفسك» .

فتنفست أرمانوسة الصعداء ، وقالت : «نعم لا أريده .. ولكننى لا أستطيع التخلص منه ، ووالدى قد عقد عهدا مع والده على أن يلقينى بين يديه ، ولا أعرف هدفه من ذلك» .

فقالت بربارة : «إذا بقى والدك مصرا على عزمه ، ولم ترى طريقة للتخلص .. فلا أرى إلا أن تطيعيه وأنا واثقة كل الثقة أنه لم يوافق على زفافك إليه إلا وهو يعتقد بأن ذلك سيكون سببا لسعادتك ، وأظن أن رفضك وليد الخوف من الاغتراب والابتعاد عن البيت الذى ربيت فيه.. أما إذا تم الزفاف، فسوف يزول عنك هذا الخوف، ويسكن روعك» .

فتنهدت أرمانوسة ، وقالت : «كيف يسكن هذا القلب وهو ليس معى .. إننى إذا سافرت إلى القسطنطينية فإنى أسافر بغير قلب» ..

فأدركت بربارة أنها متعلقة بغير قسطنطين .. وهذا هو سبب تمنعها عن الزواج.

فأرادت مداعبتها، فقالت : «ولكن القسطنطينية أكثر أمناً له .. فالبلاد هنا بين خطرين عظيمين ، إذا سلمت من أحدهما لا تسلم من الآخر» .

فوقع قول بربارة من أرمانوسة موقعا همها كثيرا ، فأحبت أن تعرف حقيقة الواقع ، فقالت : «وكيف ذلك؟» .

الدعوة إلى الإسلام

فقالت : «هل يخفى على سيدتى حالنا مع الروم واضطهادهم إيانا، وما بين سيدى والدك وبينهم من الضغائن ، وكم ساموا نحن الوطنيين من أنواع العذاب بسبب الاختلاف المذهبى بيننا وبينهم .. فإنهم أصبحوا يقتلون كهنتنا وينفون بطاركتنا ويذيقوننا أنواع العذاب

ونحن كاظمون الغيظ صابرون على البلوى. وكم سمعت سيدى والدك يتمنى أن يأتينا أى حاكم يتسلط علينا، فنتخلص من ظلم هؤلاء الحكام ... فقطعت عليها أرمانوسة الكلام قائلة: «لكننى أعجب لشكوانا وشكواكم .. وأنتم المصريين أهل البلاد أكثر عددا من هؤلاء الروم وهم غرباء قليلون ، فلماذا لا تخرجونهم من بلادكم؟» .

فتبسمت بربارة ، وقالت : «صدقت يا حبيبتى إننا أكثر عددا ، ولكن هؤلاء هم أصحاب السلطة وفى أيديهم الحصون والمعاقل. وهم الحاكمون ومنهم العساكر والحكام .. ولا تظنى أن المصريين لم يحاولوا هذا الاستقلال ، ولكن الروم دولة كبيرة فكانت تبعث إلينا جنودا يتغلبون علينا بالقوة .. وأنت تعلمين أن والدك أصله منهم ، ولكنه يحب أبناء البلاد ويميل إلى الوطنيين لأنه يرى الحق فى جانبهم . وخلاصة القول إننا أبناء وادى النيل لا نستطيع أن نحب هؤلاء الرومانيين .. فقد كرهتهم نفوسنا ، وخصوصا لأنهم أهانوا بطاركتنا ولا يزال بطركنا بنيامين فارا من وجوههم .. ولا يعرف مقره إلا القليلون ، فكيف يمكننا أن نحبهم ؟ فسيدى والدك حفظه الله هو الحاكم على الوطنيين فى الصعيد والوجه البحرى كافة .. وكلهم يحبونه لأنه يحبهم ، ولكنهم جميعا يشكون ظلم البطريرك الرومانى المقيم فى الاسكندرية مع رجاله وعساكره .. وقد سمعت سيدى يتحدث مرارا عن قرب حلول الأجل والتخلص من هؤلاء . ومما حكاه مرة لرجال مجلسه – وقد سمعته خفية – أنه جاءه منذ سنين رجل من بلاد العرب الذين يسكنون جنوبى هذه البلاد ، والرجل يحمل رسالة ترجمها الترجمان إلى لغتنا القبطية .. فقرأها وإذا هى واردة من كبير العرب، وهو رجل عظيم، يدعو إلى ديانة جديدة وتبعه جمع غفير ، وكل رجاله أشداء أقوياء . ومما يقوله له فى ذلك الكتاب أن يترك ديانة السيد المسيح ويتبع ديانته، وبينما كان سيدى يقص هذه القصة استخرج الكتاب من جيبه، فإذا هو جلد جاف مكتوب بلغة يتكلمها العرب – يقال لها اللغة العربية .

والخلاصة أنه سر بمجىء هذا الرجل ولم يرد أن يغير دينه ، ولكنه بعث إلى ذلك الكبير هدايا .. وفى جملتها ثلاث جوار إحداهن مارية التى كانت عندك وكنت تحبينها كثيرا ، وأجابه أنه لا يستطيع أن يسلمه البلاد بدون أمر صاحبها هرقل ملك الرومانيين وهو فى القسطنطينية . وبعد أن أتم سيدى قصته أخبرهم أنه يفضل أن يستولى العرب على هذه البلاد حتى نتخلص من هؤلاء الظالمين .. وسمعت جميع الحاضرين يؤيدون رأيه ، ولكنهم أصروا جميعا على أن لا يغيروا دينهم.. وقد مضى على ذلك عدة سنوات .. ومنذ بضعة أشهر أتاه رسول سرى رأيته قادماً فى قارب .. وعليه لباس البدو .. وطلب مقابلة سيدى فأذن له ، فدخل وأعطاه كتابا . ولا أدرى ماذا دار بينهما ، ولكننى رأيت سيدى سافر إلى الاسكندرية فى اليوم التالى .. وأوعز إلى كل من رأى ذلك البدوى ألا يذكر عنه شيئا ، وكنت من يوم ذهابه وأنا أفكر فى سبب قدومه .. ولكننى ظننته جاء فى مهمة خاصة .. وقد مضى على سيدى الآن بضعة أشهر فى جهات الوجه البحرى وفى الاسكندرية ، ونحن لا ندرى ماذا جرى وماذا يجرى .. وقد فهمت من بعض القادمين أن العرب قد قاموا من بر الشام ولعلهم يأتون إلى مصر ، ولكننا لا نعلم من أى طريق يأتون. وقد فهمت من هؤلاء الرجال أيضا أن مولاى أمر العساكر الذين تحت سلطته أن يذهبوا مع قائدهم الرومى المندقور الاعيرج ويقيموا فى حصن بابل مقابل الجيزة فى بلدة بابل .كى يمنعوا العرب إذا وصلوا إلى هنا من الدخول إلى هذه المدينة لأنها عاصمة البلاد» .

وكانت أرمانوسة أثناء كلام خادمتها مصغية كل الإصغاء وقالت: «كيف تقولين إن والدى يريد أن يسلمهم البلاد ويتخلص من الروم، وتقولين إنه يستعد لقتالهم ودفعهم؟» . فقالت بربارة : «نعم إنه يود ذلك ولكنه لا يستطيع أن يصرح به، لأن القوة هنا كلها من الروم .. وكل جند القطر المصرى منهم ، فإذا علموا بقصده لا شك أنهم يقتلونه ويقتلوننا جميعا . فهو لايستطيع أن يحقق هدفه إلا بالتأنى والحيلة» .

اركاديوس

فلما سمعت أرمانوسة ذلك صمتت ، وكانت قد هدأت وانصرفت هواجسها ، ولكن عندما ذكرت بربارة الحصن والاعيرج عادت إليها الهواجس وعاد الانقباض إلى وجهها ، فقالت بلهفة : «وهل أتى الأعيرج الآن إلى الحصن ؟» .

قالت : «نعم أظنه قدم ، ومعه كل رجاله» .

فقالت أرمانوسة : «كل رجاله وأولاده ؟..»

قالت : «لا أعلم، ربما كان ذلك .. ولكن ماذا يهمنا من أولاده، لا أبقاه الله ولا أبقى أولاده فإنهم يستحقون النار» .

فأمسكتها أرمانوسة بيدها، وقالت : «لا تلعنى ولا تسخطى» وترقرقت الدموع من عينيها ..

فعجبت بربارة .. ولكنها أرجعت ذلك إلى اضطراب الفتاة وخوفها، فقالت لها: «ألا تجوز اللعنة على القوم الظالمين؟» .

قالت : «هبى أنها تجوز ، ولكن ..» وصمتت وهى تبكى .. ثم قالت: ««إننى ألوذ بك يا خالتى .. دبرينى برأيك ، واكتمى أمرى، وساعدينى فى مصيبتى ، فإن كانت حالتى تستحق البكاء قبل حكايتك هذه فإنها الآن تستوجب النوح والندب .. آه من هذا القلب .. آه يا أركاديوس» .

فضمتها بربارة إلى صدرها وقبلتها.. وقد فهمت أن الفتاة مولعة بأركاديوس بن الاعيرج الرومانى، وهو شاب جميل شجاع يحبه كل من يعرفه.. وكان يأتى أحيانا لزيـــارة المقوقس ، بالرغم مما بين المقوقس وسائر الرومانيين من النفور.. وكان إذا التقى بأرمونوسة، تسارقا النظر وتراسلا الرموز.. وقلما تكلما.

فقالت بربارة: «انى رهينة أمرك قولى ما بدا لك ولا تخافى على سرك».

فنظرت إليها أرمانوسة قائلة: «ماذا أقول لك وحالى ظاهرة مع مبالغتى فى اخفاء حقيقتها منك.. آه من الحب، ما أحلاه وما أمره» .

فأمسكتها بربارة وهى تقوله: «تكلمى.. ليس فى الحب عار..» .

فتنهدت أرمانوسة وأسندت رأسها إلى كتف بربارة، وصمتت برهة ثم قالت لها: «لقد وقعت فى شراك الحب ، ولكن لا سبيل إلى بلوغ ما أهدف إليه .. لأنى أحب من هو عدو لوالدى ، كما قلت أنت . إنى أحب اركاديوس بن الاعيرج، فكيف لا أندب نفسى وأنوح على صباى وأنا مقتولة حبا لا محالة» .

فقالت بربارة: «لا تيأسى من نعمة الله ، فأنا نصيرة لك ولحبيبك حتى الممات . أما أنت فإنك بالغة مرادك بإذن الله» ..

فانتعشت أرمانوسة وصاحت قائلة : «أصحيح ما تقولين ؟ .. «هل تسمح الأيام لى بذلك ؟ آه لو تحققت أمنيتى لأصبحت أسعد فتاة على وجه هذه البسيطة» .

فقالت لها : «كونى مطمئنة وتمسكى بالصبر الجميل وأنا الضامنة لما تريدين ، ولنفكر جيدا في وسيلة توصلنا إلى ما نهدف إليه .. اتركى هذه المخاوف ، وهلمى الآن إلى الفراش وفى الغد نرى ما يتم» ..

فقالت أرمانوسة : «من أين يأتينى النوم؟ ولكننى سأذهب إلى فراشى التماسا للراحة ، وأرجو أن تتحققى إذا كان أركاديوس فى جملة من دخل الحصن مع المدافعين أم هو باق فى الاسكندرية .. لنرى ماذا يكون من أمره وأمر والدى وذلك الخطيب .. آه منه» .

فقالت : «طيبى نفسا وقرى عينا ، والاتكال على الله . أما والدك فلا تعارضيه واذهبى إلى بلبيس كما أراد هو ، وسنرى كيف ينتهى الأمر .. ولا تظهرى شيئا من نفورك لئلا يزداد الخرق اتساعا» ..

فلما أصبح الصباح جاءت إلى سيدتها وقد أفاقت ، فأعدت لها ثيابها وأمرت الخدم أن يهيئوا معدات السفر .. فأعدوا المراكب وأنزلوا فيها المؤن وجاءوا بقارب خاص بأرمانوسة وحاشيتها ، ومضى ذلك اليوم فى الاستعداد وأرمانوسة لم تذق طعاما .. فلما جن الليل أظلمت الدنيا فى عينيها وازداد بلبالها لعلمها أنها تاركة قصر والدها فى الصباح وربما لا تعود له ، فقضت الليلة فى البكاء والعويل

خفية.. وأهل القصر فرحون بسفرها لملاقاة خطيبها ، ولا أحد يعلم بمكنونات قلبها إلا بربارة .. التى سألتها قائلة : «هل أذهب معك أم أبقى هنا لأستطلع أمر أركاديوس ؟» قالت : أود أن تذهبى إلى الحصن لتشاهدى حبيبى .. لعله إذا علم بما سيحل بى شاركك فى تدبير وسيلة لإنقاذى من مخالب ذلك الرجل . لذلك أفضل بقاءك هنا .. وأنا أعلم أنه باسل إذا أراد أمرا فإنه يظفر به .. وها أنا سائرة إلى عين شمس لأرافق والدى إلى بلبيس ، وسأنتظر خبرا منك قبل وصول ذلك الذى لا أحبه ولا أريده .. واعلمى أن الفرج إذا أبطأ على ، فإنك تسمعين عنى خبرا يسوءك» . قالت ذلك وترقرقت الدموع فى عينيها .. فبكت بربارة لبكائها ، وهونت عليها قائلة : «لا .. لا سمح الله ، اذهبى على بركة الله .. وعلىّ تدبير الأمر» .

وباتوا تلك الليلة . فلما أصبحوا لبست أرمانوسة ثيابها الفاخرة ، وأحاط بها الخدم والجوارى ، وأنزلوها إلى قاربها الخاص .

ونزل الرجال فى قواربهم وقد نشروا الأشرعة وتحركت المجاديف، فمرت القوارب بالقرب من حصن بابل .. فوقفت برهة ريثما يفتحون لها الجسر الموصل بين الحصن وجزيرة الروضة ، وهو مصنوع من القوارب مشدود بعضها إلى بعض، تغطيها ألواح غليظة من الخشب .. فاتجهت عينا أرمانوسة نحو باب الحصن الجنوبى لعلها ترى حبيبها مارا أو واقفا ، فمرت القوارب ولم تره .

دير المعلقة

أما بربارة فمكثت بقية ذلك اليوم فى القصر ، وفى اليوم التالى سارت إلى كنيسة المعلقة داخل حصن بابل ، فلاقتها الراهبات هناك واحتفين بقدومها لما يعلمن من منزلتها عند المقوقس .. فتظاهرت بمجرد رغبتها فى زيارة الكنيسة وتقبيل الأيقونات ، فصدقن دعواها . فلما كانت الظهيرة انتشر خبر قدوم الجنود فى الحصن وأخذت الراهبات يتساءلن عن سبب ذلك ، فلما علمن بالحقيقة جعلن يصلين ويتضرعن إلى الله تعالى.

وفيما هن فى ذلك وقد خيم الغسق ، إذ سمعن طرقا عنيفا على

باب الدير وجلبة أناس وقعقعة نصال فخفن خوفا لا مزيد عليه. وقامت إحداهن إلى الباب لتفتحه وفرائصها ترتعد ، فلم تكد تفتحه حتى دخل جماعة من الجند الرومانى يتقدمهم شاب فى لباس فاخر على رأسه الخوذة الرومانية فلما رأته بربارة عرفت أنه أركاديوس وجنده ، فلبثت تنتظر ما يكون من أمرهم .. فإذا بهم يكلمونها بلغتهم فلم تفهم مرادهم . ثم تقدم واحد منهم وكلمها بالقبطية قائلا : «إن حضرة القائد يأمركن بإخلاء هذا المكان ليجعله معقلا لفرقة من الجند لأنه واقع فوق باب الحصن» ..

فنادت رئيسة الدير وأفهمتها ما جاءوا من أجله ، فتضرعت إليهم أن يختاروا مكانا غيره لأنهن لا يعرفن مكانا يلتجئن إليه سواه .. فأخذ الجند ينهرونهن ويصيحون بهن .. فخرجن يولولن ويصحن وهن باكيات ينقمن على الرومانيين ويدعين عليهم بالويل والثبور .

فخرجت بربارة معهن وذهبن إلى مأوى تحت الكنيسة كن يحفظن فيه مئونتهن من الطعام والشراب ، فجلسن هناك وقد علا صياحهن وعويلهن . فدنت بربارة من الرئيسة وخاطبتها على انفراد ووعدتها بإعداد وسيلة تنجيهن من تلك الحال .

فقالت الرئيسة : «وما الوسيلة وقد أصبح هؤلاء الجند أبغض الينا من عدو يغتالنا ، أما كفاهم ما يسوموننا من الخسف والجور وأهانة رجالنا وقتل بطاركتنا حتى جاءوا يخرجوننا من هذه الكنيسة ليجعلوا أماكن العبادة معاقل وحصونا» .

فقالت بربارة : «طيبى نفسا .. ولابد من أن يقتص الله من أهل الجور والفجور ، ولابد لحكمهم علينا من نهاية .» ..

فوقفت الرئيسة وقد خنقتها العبرات ، وقالت وهى تمسح دموعها بمنديلها : «أطلب من الله بكرامة صاحبة هذا الدير العذراء مريم أن تتحقق لهم الهزيمة ويخرجوا من هذا البلاد على أعقابهم ، وأية أمة حكمتنا بعدهم فإنها أخف وطأة علينا منهم»

أما أركاديوس فلما انتهى من مهمته هذه ، عاد إلى كنيسة المعلقة للنوم ، لأنه اختارها مقرا له لمناعتها وموقعها فوق باب الحصن

تماما وكان الجند قد أعدوا له فيها غرفة صغيرة تشرف على النيل من نافذة صغيرة ، فدخل الغرفة ونزع خوذته وسلاحه ، وجلس بجانب النافذة، فوقع نظره على الهرم المدرج بسقارة بقرب منف فاستأنس به لقربه من مقام حبيبته ، وتذكر حاله معها وحبه لها، فهاجت عواطفه وود لو كانت له أجنحة تحمله إليها وهو على يقين أنها تحبه مثل حبه لها .. ولولا ما بين والده ووالدها وبين طائفته وطائفتها من النفور لهان عليه الأمر .

أرسطوليس وأركاديوس

أسند أركاديوس يده إلى النافذة وألقى رأسه على كفه وغرق فى بحار الهواجس ثم هب من غفلته بغتة متذكراً صديقه أرسطوليس شقيق أرمانوسة وما بينهما من المحبة والألفة وتآلف الأذواق ، فقال فى نفسه : «لماذا لا أكاشف هذا الصديق بما فى قلبى من لواعج الغرام ، لعله يفرج كربتى أو يرفع عنى أثقال هذا الكتمان .. فإذا عرف بميلى إلى أخته إلى هذا الحد ، لا شك فى أنه سيأخذ بيدى وينصرنى» .. وفيما هو فى تلك الهواجس، إذ سمع وقع أقدام عند الغرفة.. فسأل عن القادم، فقيل له إن القائد ارسطوليس واقف على الباب .. فعجب لتوارد الأفكار وأذن بدخوله، فتصافحا وتعانقا وقد عجب أركاديوس لمجىء أرسطوليس فى هذا الوقت ، وسأله عن أمره فقال : «إنما جئت أيها الصديق ملتمسا منك أمراً لا يصعب قضاؤه» . قال : «قل ما شئت .. إنى فاعل ما تريد» . قال : «جاءنى بعض من كان فى هذا الدير من الراهبات يشتكين مما قاسينه من الإهانة بإخراجهن من بيتهن» .

فقال أركاديوس : «ولكننا لم نخرجهن إلا لنتخذ هذا المكان حصنا ندفع به الأعداء عنا وعنهن ، فهل إذا بقين فيه يعملن عملنا أو يدفعن مهاجما» .

قال : «لا يدفعن مهاجما ، ولكن كدرهن ونقمتهن على الجند بسبب مالاقينه من الإهانة، ودعاؤهن على المسىء إليهن يقف عثرة فى سبيل دفاعنا .. فإننا نعتقد فيهن الكرامة واستجابة الدعاء» .

قال : «نحن لا نعتقد ذلك ، ولكن إكراما لك لا أمتنع عن العمل بما تأمرنى به على شرط ألا يكون فى ذلك ضرر على الجند .. أما هذا المكان الحصين فلا نتخلى عنه لأحد» ، ثم أمر بعض الجند فأخلوا لهن مكاناً بالقرب من الدير أقمن فيه. وعاد أركاديوس إلى مخاطبة صديقه فقال : «وأنت ماذا فعلت .. هل أعددت كل شىء يتعلق بفرقتك ؟» .

قال : «أعددت كل شىء تقريبا .. ومتى جاء والدانا فإننا نتم تدبير الأمر .. ترى متى يأتيان ؟» .

فقال أركاديوس : «أما والدى فأظنه يصل إلى الحصن غدا ، وأما والدك فلا أدرى زمن مجيئه . ولا ريب أنك أعلم منى بأمره ، ولا أراه إلا مترددا فى شأن هذه الحرب .. ولم يغرنى منه التظاهر فى الاستعداد وإدخالك فى هذه الحملة ولا كونه يونانى الأصل ، فإن أعماله تدل على عكس ذلك .. فهو قبطى المشرب قائم بدعوة الوطنيين لا يريد سلطانا عليهم» .

فانتفض أرسطوليس واقفاً وهو يحاول دفع هذه التهمة عن والده قائلاً : «كيف تقول ذلك ووالدى أول مدافع عن دولتنا ، فحالما سمع بقدوم العدو أخذ فى التأهب للدفاع .. ووجودى بين جندكم أكبر دليل على رغبته هذه» .

فتبسم أركاديوس مستخفا بتلك الحجة ، وقال له : «مهلا أيها الصديق .. أنت تعلم مقدار حبى لك ، ولا تجهل أنى أحترم حضرة والدك ، ولا أنكر عليك تحامل رجالنا ودولتنا على جماعة الأقباط ، وأعرف أن نفور أصحاب البلاد من مفتتحيها أمر طبيعى لا مفر منه، وخصوصا إذا لاقوا منه ما لاقاه أهل مصر من تحامل بعض حكامنا ، وما سبب ذلك إلا الاختلاف الدينى الذى تعلمه .. ولكننى لا أسلم بأن والدك المقوقس غير قائل بقولهم أو غير داع إلى دعوتهم ، وهو يود من صميم فؤاده خروج هذه البلاد من حوزتنا ودخولها فى حوزة غيرنا مهما كانت جنسيتهم .. أما دخولك فى جندنا ، فلا تتخذه حجة لدفع هذه التهمة عنه .. بل قد تكون مؤيدة لها .. أما نحن

فسندافع عن هذه البلاد جهد طاقتنا إلى آخر نسمة من حياتنا ، وفى أيدينا أوامر مشددة بالمحافظة على هذا الحصن ودفع العرب عنه ، وأظنهم يحسبون أن الأقدار سوف تساعدهم هنا كما ساعدتهم فى بلاد الشام وبيت المقدس .. ولو كان فى قلوب حامية تلك البلاد الشهامة الرومانية ما سلموا منها حجرا واحدا .. ولكنهم فسدوا وغدروا ، ولم يكن عندهم مثل هذا الحصن المنيع ولا رجال مثل رجالنا» . قال ذلك وصمت برهة ريثما هدأت حدته .. ثم عاد فخاطب أرسطوليس قائلا : «أخبرنى الآن هل أنفذت الرجال لتحصين الحصن كما أخبرتك ؟» .

قال أرسطوليس : « قد بدأوا بتحصينه منذ وصولنا ، ولكنهم ناموا الآن التماسا للراحة ، ولا يصبح الصباح إلا وهم قيام على اتمامه .. وقد جئنا بكل معدات التحصين وفى جملتها الحديد المدبب لنبذره فى الخندق ، فلا يستطيع البدوى عبوره قبل أن تدمى قدماه ويعجز عن المشى .. هذا إذا لم نقتله بسهامنا من فوق الأسوار قبل وصوله إلى الخندق» .

فقال أركاديوس : «وأين هم الأعداء الآن ؟» .

قال : «أنبأنا الجواسيس أنهم قاموا من العريش بعدتهم ورجالهم» .

وكان أرسطوليس يعلم بمقاصد أبيه حق العلم ، وقد تحقق أن الحامية لا يمكنها دفع العرب.. وكان يحب أركاديوس كثيرا فأراد أن يكاشفه بذلك ، لئلا يكون فى جملة من تقع عليهم المكيدة . ولكنه خشى انكشاف الأمر قبل أوانه فيضيع جهد والده سدى ، فأبقاه مكتوما إلى حينه ، ونهض فودع صديقه وخرج يلتمس النوم بقية ذلك الليل ، فودعه أركاديوس وعاد إلى مقعده فعادت إليه هواجسه ..

بربارة وأرسطوليس

أما أرسطوليس فتحول عن الغرفة إلى السلم . فلما بلغ آخر درجة سار فى زقاق ضيق مظلم قاصدا غرفته ، فسمع صوتا منخفضا يناديه من جانب الزقاق .. فنظر فإذا بشبح قادم إليه أمسك بيده وهو

يقول : «ألعلك سيدى أرسطوليس ؟» فجذب ارسطوليس يده قائلا : «نعم .. ومن أنت ؟» فقالت : «أنا خادمتك بربارة يا سيدى» ، فعرف صوتها ، فقال لها : «وما الذى جاء بك إلى هذا المكان وكيف تركت البيت ؟» قالت : «جئت فى أمر ذى بال سأطلعك عليه إذا أذنت لى بخلوة» ، قال : «تعالى معى إلى غرفتى» .

فسارا حتى دخلا أحد جوانب الحصن ، وأرسطوليس يحاذر أن يراها أحد خوفا من الاشتباه فى أمره ، فلما دخلا الغرفة قال لها : «ما خبرك ؟» .

قالت : «جئت بالأمس لزيارة كنيسة «المعلقة» على جارى العادة ، فلم أشعر إلا والجنود قد دخلوا الحصن وأخرجوا من فى الكنيسة .. فخرجت مع الراهبات وكان من أمرنا ما قد علمت ، فلبثت فى ذلك الدهليز أنتظر الصباح لأعود إلى منف .. وفيما أنا أخاطب رئيسة الدير ، أخبرتنى أن راهبا جاء فى صباح الأمس يسأل عن سيدى المقوقس ومعه كتاب له .. فسألتها عن ذلك الراهب فقالت إنه خرج من الكنيسة فى ضحى هذا اليوم ولم تعد تراه ولا تعلم أين هو ، ولكنها قالت إنه من رهبان دير فى برية تيبايس يحمل كتابا من البطريرك بنيامين الذى فر من الاسكندرية إلى هناك كما تعلم . فلما علم الراهب بقدوم الجنود الرومانيين إلى الحصن ، خشى أن ينكشف أمر الكتاب فدفعه إلى الرئيسة لتخفيه ريثما يستطيع الخروج به إلى والدك.. فأخفته فى صندوقها ، فلما جاءوا الدير وأخرجوهن منه نسيت لسرعتها ودهشتها أن تأخذه معها ، فبقى الصندوق .. وأخشى إذا وصل إلى أيديهم أن يبنوا عليه العلالى والقصور .. إذ ربما كان فيه ما يؤاخذ سيدى عليه» .

فلما سمع أرسطوليس كلامها ، سكت برهة وهز رأسه كأنه أدرك المراد من قدوم الراهب بذلك الكتاب .. ولكنه خاف سوء العاقبة ، فتملكه الاضطراب ، وقال لبربارة : «وما السبيل إلى الحصول على الكتاب الآن ، وأنا لا أقدر أن أطلبه من أركاديوس صريحا ، فهل تعرفين حيلة توصلنا إليه ؟» .

قالت : «سأتمكن من ذلك بإذن الله إذا أعطيتنى كتابا إلى أركاديوس تقول فيه إن رئيسة الدير تريد إخراج أيقونة من صندوقها لتصلى لها كجارى عادتنا ، وأن يأذن لى بالدخول إلى الكنيسة لإخراج الأيقونة بدون أن يتعرض لى أحد .. وأنا أتم الحيلة» .

فسر أرسطوليس بحيلتها ، وأخرج قطعة من ورق البردى كانت فى جيبه ، وكتب عليها ما أشارت به بربارة .. فتناولتها وخرجت .. فقال لها أرسطوليس : «لا تطيلى الغيبة ، فإنى فى انتظار رجوعك» فقال : «طب نفسا ، إن غيابى لا يتجاوز فجر الغد» .

وتذكر أرسطوليس شقيقته ، فنادى بربارة وسألها عنها قائلا : «هل سافرت سيدتك أرمانوسة إلى بلبيس ؟» .

قالت : «نعم يا سيدى» .

وسارت توا إلى الرئيسة ، فتناولت منها مفتاح صندوقها ومضت إلى كنيسة «المعلقة» فاعترضها الحراس ، فأرتهم كتاب أرسطوليس إلى أركاديوس .. فأذنوا لها ..

وكان أركاديوس لا يزال غارقا فى هواجسه .

وفيما هو فى ذلك إذ دخل عليه أحد جنوده يخبره بأمر بربارة وكتابها ، فعجب لأمرها وقال : «هات الكتاب منها» ، فقال الجندى : «قالت إنها غير مأذون لها بتسليمه لسواكم» ، قال : «فلتدخل» ، فدخلت .. وحالما رآها استأنس بمنظرها وخيل له أنه شاهدها من قبل ، ولكنه لم يتذكر اسمها ولا المكان الذى شاهدها فيه .. على أنه شعر بارتياح إلى منظرها فابتسم لها وتناول الكتاب منها ، وسألها عن أمرها فقالت : «نسينا الأيقونة يا سيدى فى الصندوق وهذا هو المفتاح ، فهل تأذن لى بفتحه وإخراجها» .. فلما سمع كلامها ازداد استئناسا بها وأحب استطلاع حقيقة حالها فقال لها : «كيف تدخلين بنفسك بين الجنود وهم يملأون الغرف ؟» .

قالت : «وماذا يخيفنى إذا كنت ذاهبة بأمر سيدى اركاديوس ؟» .

فقال : «ألعلك من أهل هذا الدير ؟ .. على أنى لا أرى عليك لباس الراهبات» .

قالت : «بل أنا جئت للصلاة ووفاء بعض النذور ، فلما جاء الجنود خرجت فى جملة من خرج . وقد كلفتنى رئيسة الدير أن آتيها بالأيقونة» .

فقال : «ولماذا لم تأت بنفسها أو أرسلت إحدى راهباتها ؟» .

قالت : إنها لا تتجرأ على مخاطبة سيدى أرسطوليس بشأنها ، فأرسلتنى لمخاطبته فأعطانى هذه التوصية ؟» .

فقال : «وكيف تجرأت أنت على ذلك ؟» .

قالت : «لأنى من بعض خدم قصره» .

فلما سمع أركاديوس ذلك خفق قلبه وتوسم الخير من حديثها ، فاعتزم أن يتنسم منها أخبار حبيبته ، فقال : «وأى قصر تعنين ؟» .

قالت : «قصره بمنف لأنى خادمة خاصة لشقيقته .. أرمانوسة» .

فلما سمع اسم حبيبته انتعشت جوارحه وأحس بالفرح ، ولكنه تجلد وقال : «هل أنت خادمتها الخاصة ؟» .

قالت : « بل أنا مربيتها ، وإذا شئت فقل إنى بمنزلة والدتها» .

فتنهد حينئذ اركاديوس ودعا بربارة للجلوس ، فجلست وأخذ يخاطبها همسا لئلا يسمعه أحد . وهى تقول فى نفسها : «ها قد قربنا من بلوغ ما نتمنى» ..

فقال أركاديوس : «قد أصابت ارمانوسة باعتمادها عليك ، لأنى قرأت الاخلاص على محياك .. فهل عندك للسر مكان؟» .

قالت : «إنى جعبة أسرار عميقة .. فقل ما بدا لك ولا تخف» .

قال : فهل تعلمين بما فى قلب أرمانوسة؟» .

قالت : «نعم أعلم أنها تحب والدها ووطنها» .

قال : «لا تخيبى ظنى فيك .. أرجو أن تجيبينى جوابا يفسح لى مجالا للكلام معك ، فيما لم أكلم به أحدا بعد» ..

قالت : «قل وافصح ولا تخف .. وأقسم لك بحبيبتى أرمانوسة أن

سرك لن يتجاوز هاتين الشفتين إلا بإذنك» .

قال : «قد أحسنت الجواب ، فاعلمي أن لي مأربا بسيدتك أرمانوسة، وقد أحببتها حبا شديداً، فهل تعلمين شيئا من ذلك ؟» .

قالت : «وأي شيء تعني ؟» .

قال: «إني أسألك عن أمر هذا الحب، فهل لمحت أنها تحبني ؟» .

قالت : «يجدر بي أن أسألك أنا هذا السؤال» .

قال : «أراك تحاولين إخفاء الحقيقة ، فأنا لم أسألك إذا كنت أنا أحبها .. ولكني سألتك إذا كانت هي تحبني» .

قالت : «وهذا ما أردته من سؤالي ، لأن من القلب إلى القلب دليلا .. فإذا كنت تحبها، فلابد من أن تكون هي أيضا تحبك» ..

قال : «قلت إني أحبها .. فإذن هي تحبني . وهذا ما كنت أعتقده.. وقد أحسنت الدفاع عنها وكتمان أمر حبها خوفا مما يخافه أهل الهوى في مثل هذه الحال . أما وقد تحقق ظني ، فأنا أعترف لك أني أحب أرمانوسة حبا شديدا يهون عليّ كل صعب» .

فقالت : «ما الفائدة من حبك لها وأنت تعلم أن والدك لايرضى بها لك .. فما الفائدة من هذا الحب؟» .

فهز رأسه وتنهد ، ثم قال : «لا أرى دون الوصول إلى أرمانوسة صعبا لا يذلله حد هذا السيف» .. وأشار إلى سيفه .

فقالت : «أنا أعلم أن عزائم الرجال تذلل الصعاب ، ولكن الأمر لا يذلله السيف .. وإنما هي حقوق أبوية قد تكون أرهف حدا من الصوارم ، فهل تعصي والدك يا سيدي ؟ أرى ألا تعرض نفسك لغضبه وأنت أدرى بما ينجم عن ذلك . ولكن هب أنك ذللت كل هذه الصعاب ، فماذا تصنع بقسطنطين ؟» .

فأدرك مرادها ، وكان قد سمع بخطبتها له ولم يصدق ، فقال : «وما علاقته بهذا الأمر ؟» .

قالت : «ألا تعلم أنها مخطوبة له ؟» .

قال : «مخطوبة ؟» ، ثم أردف : «وهل قبلت هي ؟» .

قالت : «لا أدري ، ولكنها سارت في الأمس من قصرها بحاشيتها مع سيدي والدها إلى بلبيس كي تظل هناك في انتظار خطيبها» .

فلما سمع أركاديوس ذلك نهض عن كرسيه بغتة ، وصاح بها: «ويحك .. ماذا تقولين ؟» .

قالت : «أقول الصدق يا سيدي .. فإنها خرجت من القصر قبل أن أخرج أنا ، وهي الآن في طريقها إلى بلبيس» .

فحمي غضبه ، وقال لها : «يظهر أنها قبلت قسطنطين .. فكيف تقولين إنها تحبني ؟ ... ألعل قسطنطين أقرب إلى قلبها مني ؟» .

فقالت له : «قلت إنها سارت مع والدها إلى بلبيس ، وأظنها فعلت ذلك إذعانا لأمره .. وهو لا أظنه يستطيع مخالفة أمر الامبراطور . وعلى كل فإنها الآن ذاهبة إلى بلبيس ، ولا تدري متى يأتي خطيبها للزواج بها.. وأما قلبها فاسأل قلبك عنه» ..

فنظر إليها غاضبا ، وقال : «أما قلبي فيحدثني أنها لا يمكن أن تنظر إلى سواي ولو أدى ذلك إلى مخالفة أمر والدها» .

فقالت : «كيف تتوقع منها ذلك وهي فتاة ، وقد رأيتك وأنت شاب باسل تتردد في مخالفة والدك إذا منعك منها؟» .

فحملق بها وقد احمرت عيناه ، وقال : «كيف تقولين إني أتردد؟ وأنا أقول لك إن لا شيء يمنعني منها إلا الموت» . ووضع يده على قبضة حسامه ، وقال : «ومادام هذا الحسام إلى جانبي لا أرى عقبة في سبيل البقاء على ودها ولو قاومني قسطنطين ، بل إن جنود أبيه برمتها لو قامت عليّ ما رجعت عن عزمي إلا إذا كانت هي راضية به ، ولكن من يخبرني بما في نفسها؟» ..

قالت : «هب أنها لا ترضى به وأنها باقية على حبك؟» .

فالتفت إليها قائلا : «إذا تحققت من بقائها على ودي ، فإني أحارب في سبيلها جنود هرقل برمتهم ، حتى أنالها أو أقتل» .

قالت : «خفف عنك .. وأعلم أن دون ذلك ليس جنود هرقل فقط ، ولكن دونه أيضا غضب والدك ووالدها» ..

فقال : « ولكن إذا كان قلبها مثل قلبى ، فإننا لانخشى شيئا ولو قامت علينا الأرض بالطول والعرض .. فأخبرينى عن حقيقة نياتها ، وليكن فى كلامك هذا القول الفصل » .

فلما رأت ماهو فيه من الغضب ، ابتسمت له قائلة: « اعلم يا سيدى أن أرمانوسة تحبك حبا ليس بعده غاية ، أما قسطنطين فهى لاتعرفه ولا تريد أن تعرفه . وأما سيرها مع والدها ، فبالرغم عنها ، إذعانا لأمره واحتراما له .. ولكن قلبها عالق بأركاديوس البطل الهمام. ولم آت هذا الدير إلا لاستطلاع مكنونات قلبك ، ومعرفة مقدار حبك لها . أما وقد عرفت ذلك ، فقد هان الصعب وخاب قسطنطين . وطالما كنتما فى وفاق ووداد ، فلن يدرك ذلك الرجل شعرة من رأسها . فدبر وسيلة تنقذها من مخالبه » ..

فبرقت أسرة أركاديوس ، ونظر إلى بربارة وقد أشرق وجهه وقال: « أما والحال على ما تقولين فلا نخاف أحدا ، وأنا لها وهى لى .. وما عليك الآن إلا أن تذهبى إليها وتخبريها بعزمى، وتقولى لها إن أركاديوس حبيبك ثابت في محبتك ثبوت الجبال. فاثبتى أنت وانتظرى الفرج من عند الله أو من سيف أركاديوس » .

فقالت : «ولكن يا سيدى ما الذى يثبت صدق قولى لها، ويوطد روابط المحبة بينكما ، وأنتما إلى الآن لم تتحدثا معا حديثا صريحا » .

فلبث أركاديوس مدة يفكر ، ثم قال : «صدقت .. ولكن ماذا عساى أن أرسل إليها وأنا لست مستعدا لذلك» ، ثم مد يده إلى خاتم فى إصبعه يريد انتزاعه ، ولكنه توقف برهة ممسكا الخاتم كأن خاطرا يعترضه فيمنعه ، وأخيرا نزعه وقدمه إلى بربارة وقال : «خذى هذا الخاتم فإنه خاتمى .. وقد نقش عليه النسر الرومانى واسمى ، وسلميه إليها يدا بيد . واحذرى أن يعلم أحد بذلك ، واعلمى أنى قد سلمتك شرفى ووضعت فيك ثقتى .. وهذه أول مرة خاطبتك فيها فلا تخيبى أملى ، وأطلب إليك أن تحفظى ما دار بيننا سرا . واحذرى أن تتكلمى به أمام أحد ..» .

فتناولت الخاتم ، وقبلته ثم قالت : « طب نفسا وقر عينا ، فإنى الخادمة الأمينة لك ولسيدتى التى هى أعز من روحى » .

البطريرك بنيامين

ثم نهضت ، وطلبت إليه أن يأمر بمن يوصلها إلى صندوق رئيسة الدير ... فنادى خادمه الخاص ، وأوصاه أن يرافقها إلى حيث تريد .. فسارت وأخرجت الكتاب خلسة ، وتظاهرت بحمل الايقونة . ونزلت حتى بلغت مكان الرئيسة وسائر الراهبات ، فسلمتها الأيقونة وأخبرتها أنها أطالت البقاء هناك ريثما تمكنت من تدبير الحيلة لاستخراج الكتاب ، وكانت قد خبأته في جيبها ، فأرادت الذهاب به إلى سيدها أرسطوليس ، ولكنها خشيت أن تقع فى أيدى الحراس .

فلبثت بقية ذلك الليل حتى إذا أصبح الصباح ذهبت بالكتاب إلى سيدها، فإذا هو فى انتظارها على مثل الجمر .. فلما رآها مقبلة، هم بلقائها وأدخلها غرفته وسألها عن الكتاب..فأعطته إياه. فإذا هو مكتوب بالقبطية من بالبطريرك بنيامين إلى المقوقس ، وجاء فيه :

« ولدنا يوحنا بن قرقت حاكم مصر ....

« قضى على بالانزواء فى هذا الدير ، وأنت تعلم أنى إنما أبعدت إليه ظلما وعدوانا بأمر أعدائنا دينا ووطنا — ورئيسهم البطريرك الاسكندرى — لأنهم ضلوا عن سواء السبيل وحرفوا كلام الله عن مواضعه ، ولست أنا أول من تحمل هذا الاضطهاد من أجل الحق .. فأنت تعلم أن كثيرين من البطاركة قبلى قد ذهبوا ضحية هذا الضلال، وأنا لا أطلب لهم إلا الهداية إلى طريق الحق ولا أدينهم ولكن الله يدينهم ... وأما ما أوجب كتابة هذا إليك أننى علمت عن ثقة أن العرب الذين قد ظهروا بالدعوة إلى الإسلام والقيام فى سبيل الجهاد ، قد حاربوا الروم في العراق وفارس وسوريا وفلسطين وتغلبوا عليهم وأخذوا البلاد من أيديهم .. والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده . وقد علمت أنهم قادمون إلى مصر لتخليصها من أيدى أعدائنا ، وأعلم أيضا أنك لاتستطيع الجاهرة بالانحياز اليهم

كما أخبرتني غير مرة لئلا يعود ذلك وبالا علينا ، وقد أعجبني ذلك منك لأنه دليل على الحزم والدراية .. ولكنني واثق من ثباتك مع سائر أولادنا جماعة الأقباط الذين أثقل الدهر كاهلهم بالاستبداد والعسف، وقد مضت عليهم قرون متطاولة وهم يئنون من وطأة هذا الظلم ولا مجير لهم. وقد رأيت فى ليلتى هذه حلما تفاءلت منه خيرا ، وعلمت أن هؤلاء العرب إنما أرسلهم الله لإنقاذنا من أيدى الروم .. على أننا لو أردنا طردهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، لأن الله منحهم النصر فيما قاموا به فلم يهاجموا حصنا إلا فتحوه ولا نازلوا جندا إلا هزموه . ولا يخفى عليك أن الروم قد دالت دولتهم ، ولو أراد الله نصرتهم ما خرجت بلاد الشام من أيديهم . وأعلم أيضا أن هؤلاء العرب قد قاموا يدعون الناس إلى دينهم ، فإما أن يقبلوا الدعوة أو يحاربوهم إلى آخر نسمة من حياتهم أو يسلموا ويدفعوا الجزية . أما أنا فلا أرى أن تخرجوا من دينكم الذى ولدتم فيه ، ولكن التسليم ودفع الجزية لهؤلاء العرب أولى بنا وأقرب إلى خلاصنا من مخالب الظلم .. فإذا كنت لاتزال على ما أعلم ، فافعل وأنقذ البلاد من الشر واحذر أن تتحول عن عزمك .. وها أنذا أصلى ليلا ونهارا وأدعو الله أن يأخذ بيدك ويلهمك إلى ما فيه خيرك وخير البلاد .

وأخيرا أهديك البركة ، وأدعو لك ولسائر أبنائنا وأخواننا بالروح .. والرب يحفظكم» .

«البطريرك بنيامين»

فما جاء على آخر الكتاب حتى كلل العرق جبينه ، وتذكر ما قام بين القبط والروم من الضغائن وما قاسوه من عواقب الاستبداد والجور .. ثم لف الكتاب وخبأه فى مأمن وقال لبربارة :« اذهبى بسلام .. وإذا رأيت والدى أخبريه أن له معى كتابا أريد اطلاعه عليه ، ولاتطيلى مقامك هنا لئلا تستبطئك سيدتك فينشغل بالها لما نحن فيه ، فأسرعى فى الرجوع وأخبريها أننا بخير » .

قالت :«ولكننى أخشى ألا أدركها فى عين شمس ، فيصعب

على المسير وحدى إلى بلبيس » .. فإذا أذنت ، دع اثنين من رجالك يرافقانى إلى عين شمس ، فإذا كان الركب لايزال هناك انضممت إليهم وعاد الرجلان .. وإلا رافقانى إلى بلبيس» .

فوافقها قائلا: « الأرجح أنك تشاهدين سيدك في عين شمس ، فإليك الكتاب وسلميه إليه يدا بيد . واحذرى أن يراه أحد غيره» .

ثم أمر باثنين من رجاله، فأوصاهما أن يرافقاها إلى عين شمس.

عين شمس

خرج الثلاثة من الحصن ومازالوا يجدون فى السير حتى وصلوا إلى عين شمس، فترجلوا ودخلوا السور، فإذا بالمدينة خالية خاوية .. وكلما رآهم أحد من أهلها ذعر وفر من أمامهم، فاندهشوا لذلك، وأرادوا الاستفهام عن الأمر .. فلاقاهم رجل شيخ يتوكأ على عصاه، فتقدم إليه الرجلان يسألانه عن سبب ما شاهدوه من نفور هؤلاء الفلاحين وفرارهم.

فقال : «وهل حضرتكم من جنود الروم ؟» ، قالا : « بل نحن من جنود مولانا المقوقس .. وما سبب سؤالك ؟» .

قال : «أما وقد علمت أنكم من إخواننا القبط ، فأخبركم أن سبب نفور هؤلاء الناس منكم أنهم رأوكم بلباس الجند ، فظنوكم من جنود الروم . ولا يخفى عليكم ما آلت إليه حالنا من معاملتهم لنا بالقسوة والجفاء ، وكم مروا بنا مثل مروركم هذا وكلفونا مالا طاقة لنا به من الأعمال .. وإذا رأوا عندنا متاعا أخذوه ، أو حيوانا اغتصبوه ، أو طعاما أكلوه ، فلا لوم عليهم فى الفرار ، وأنا والله لولا عجزى عن الركض ما وقفت أمامكم .. فالحمد لله على ما حدث واعلموا أننا رهن إشارتكم فى كل ما تريدون .. فانزلوا على الرحب والسعة » .

قال أحد الجنديين واسمه مرقس : « هل إلى هذا الحد تخافون من رجال حكومتكم ؟» ،فتأوه الشيخ تأوها عميقا وقال : « كأنى بكم لصغر سنكم لم تذوقوا ماذاقته هذه الشيبة ولا قاسيتم ما قاساه هذا الشيخ .. إن حالنا يا أولادى مع هؤلاء الروم يتفتت لها الصخر،

وقد مضى على ثمانون عاما لم أذق فيها يوم راحة ، ولا سمعت خبرا مفرحا ، وقد وقعت فى الخطر مرارا ، وذقت العذاب ألوانا وكم تمنيت أن يملك بلادنا هذه أهل البجة أو أهل الحبشة ، فإنهم أقرب إلى الشفقة والرحمة من هؤلاء .. ولكن يلوح لى أن الزمن المنتظر قد اقترب » .

وكان يكلمهم وهو مطرق لانحناء ظهره .

فقال مرقس للشيخ : « لقد سرنا حديثك .... ولكننا نسألك، قبل إتمام الحديث، عن ركب مولانا المقوقس ، هل علمت بمرورهم من هذا المكان ؟» .

قال : « نعم .... إنهم باتوا البارحة هنا وأصبحوا فجر هذا اليوم وأقلعوا شرقا، وهم الذين بشرونا بقرب الفرج » ..

فلما رأى الجنديان أن لابد لهما من الذهاب إلى بلبيس مع بربارة، وأن الشمس قد مالت إلى المغيب .. عولا على المبيت، فإذا أصبحوا ساروا إلى بلبيس . فمكثوا وقد طاب لهم حديث الشيخ، فقال له مرقس : « هل تأذنون لنا بالمبيت عندكم الليلة ؟» .

قال الشيخ : « على الرحب والسعة يا ولدى» ، ونادى أولاده فظهروا من وراء الجدران حيث كانوا مختبئين .

فتقدم الأولاد وأرادوا تقبيل يدى الجنديين وهم يرتجفون خوفا ، فابتدرهم والدهم قائلا : «إنهما يا أولادى من رجال المقوقس فلا تخافوا» ، وأمرهم أن يعدوا لهما مكانا للمبيت وطعاما .

فلما استتب بهم المقام ، قال مرقس للشيخ : « رأيناك تبشرنا بقرب الفرج ، فماذا عنيت ؟» .

فقال الشيخ : « سمعت من بعض رجال الشام أنه ظهر فى بلاد العرب رجل عظيم دعا الناس إلى ديانة جديدة ، والتف حوله رجال أشداء حاربوا الروم فى بلاد الشام وغلبوهم . ويلوح لى أنهم لايقعدون عن مصر ، فإنها أحسن بلاد الروم خصبا وأكثرها إنتاجا ، ولا أظنهم يلاقون فى فتحها مشقة . وقد سمعت بالأمس من بعض

رجال مولانا المقوقس أن هؤلاء العرب قد عولوا على القدوم إلينا ، والظاهر أنهم لايزالون بعيدين» .

فقال مرقس ، وكان أفصح حديثا من رفيقه جرجس وأكثر منه جرأة : « ماذا يدعو لظنك أنهم بعيدون ؟» .

قال : «لأنى أرى سيدى المقوقس ذاهبا بموكبه مهتما بتزويج ابنته أرمانوسة بقسطنطين بن هرقل ملكنا . فلو كان العدو على الأبواب ما حمل ابنته إلى بلبيس وهى فى طريق العدو إذا جاء من ناحية الشام » .

فقال مرقس : « إن المصائب قد كتبت علينا ولاندرى عاقبة هذه الحروب ، ولكنا نرجو النصر لنا لأن حصوننا ومعاقلنا منيعة . وليس هؤلاء العرب إلا فئة قليلة من البدو يركبون الجمال ويرعون الماشية . وأما جنود الروم فرجال محنكون ، وخصوصا ملكنا هرقل فإنه شديد البطش ، وقد حدثنى والدى أنه هو الذى أخرج جيوش الفرس من مصر بعد أن ملكوها ورسخت أقدامهم فيها» .

فهز الشيخ رأسه وقال : «نعم أن هرقل أخرج الفرس من مصر بالقوة ، ولكنه لايستطيع دفع العرب عن بلاده . والظاهر من حاله وحالهم أن دولته قد دنا أجلها لأن النصر محالف لهؤلاء الأقوام ، فلم يهاجموا مدينة إلا فتحوها حتى ملكوا الشام والقدس والعراق واليمن وغيرها . ولم تستطع جنود الروم الوقوف أمامهم ، وما ذلك إلا لما أراد الله من انقسامنا وقيامنا بعضنا على بعض، وإلا فلا كان العرب ولا غيرهم يقوون على جندنا . وكيف يستطيع هرقل دفع هذا العدو عن بلاده وهو كما نعلمه من حاله معنا ؟ .. أتظن أن القبط إذا جاءهم العرب محاربين يدافعونهم حبا فى الروم ؟ .... بل أقول وأنا أحد الأقباط ، إنى أفضل أية دولة تحكم هذه البلاد على دولة الروم .. وما ذلك إلا لما قاسيناه من جورهم واستبدادهم .

نعم أنهم مسيحيون مثلنا .. ولكن الوثنى خير منهم ، اسألوا هذه الشيبة تنبئكم بما قاسيناه منهم .. فكم هدموا من كنائسنا وأهلكوا

من بطاركتنا وجردونا من أملاكنا .. وقد سمعت من رجل قدم من الشام حديثا أن العرب بعد أن فتحوا الشام ، أمنوا النصارى على أموالهم وأعراضهم وأباحوا لهم الصلاة فى معابدهم .. أليسوا إذن خيرا من الروم ؟، ولكن آه من حظنا نحن المصريين فإن الشقاء قد كتب علينا ، وأذكر يوم جاء الفرس بلادنا منذ أربعين سنة .

وكان ملك الفرس يدعى « كسرى» وقد اشتهر بشدة البأس ، فلما سمعنا بقدوم جنده إلى مصر قلنا فى أنفسنا عساهم أن يكونوا خيرا لنا من الروم فننجو من جورهم ولكن وا أسفاه .

عاملونا بعدئذ معاملة لم يعاملنا مثلها الروم ، وذلك أنهم دعوا أهل المدينة إلى مكان وقالوا إنهم يريدون الانعام عليهم واكرامهم .. فتقاطر الناس أفواجا إلى ذلك المكان ، وأما أنا فلحسن حظى لم أستطع الذهاب لاستغراقى فى العمل ولبعد المكان فجمعوا أهل المدينة فى قاعة كبيرة منيعة السور، وبعد أن جمعوهم فى ذلك المكان .. سمعنا أنهم قتلوا الآلاف منهم فلما سمعت بالوقعة ، حملت أولادى وأهلى وخرجت حتى جئت هذا المكان وأقمت فيه ، وقد خسرت كل ما ملكت يداى ورضيت بالفقر والمسكنة تخلصا من الموت . أما الفرس فإنهم تمكنوا من دخول القسطنطينية وهى عاصمة الروم كما تعلمون. ثم علمت أن الروم لما رأوا ضعف ملكهم «قوقا» عزلوه ، وولوا «هرقل» هذا .. وكان من قبل واليا على إفريقيا فجاء القسطنطينية وقتل «قوقا» وأخوته . وحارب الفرس مرارا حتى يئس من الفوز ، فعزم على أن ينقل مقر ملكه إلى تونس ... فعظم ذلك على الروم وقام البطريرك إذ ذاك وشد أزره فرجع إلى محاربة الفرس فمكنه الله منهم فدفعهم عن بلاده وعادت مصر إلى حوزته ..

ولكنه عاد إلى ما كان عليه أسلافه من الاستبداد بنا واضطهاد بطاركتنا ، وكان على الاسكندرية البطريرك بنيامين التقي الورع .. فاضطهده «هرقل» واستبدله ببطريرك اسمه « كورش» وأراد هذا أن يعتقل «بنيامين» ففر من الاسكندرية إلى بريه اسقيط وأقام فى

«تيبايس» حيث يكثر أنصاره وهو ما يزال هناك حتى الآن . على أن هرقل لم يكتف بهذا العمل .. فلما فاته اعتقال البطريرك قبض على أخيه «مينا» وكان لايزال فى الاسكندرية ، وأرسله مكبلا بالأغلال إلى القسطنطينية . وقد سمعت أن «هرقل» عمل على تملقه حتى يسلم برأيه ، فلم يذعن له فأمر به فطرح فى النار حتى كاد يحترق، ثم أخرجه منها وجعل يلكمه على فكيه حتى سقطت أسنانه ، وأمر بكيس وضع فيه ثم مليء رملا ، وألقوه فى البحر فمات شهيدا.. هذه حكايتنا يا ولدى وقد حكيتها لكم كما شاهدتها ، وتحدثنى النفس أحيانا أن هؤلاء العرب لايبعد أن يعاملوننا معاملة الفرس .. ثم يدور بذهنى ما سمعناه عن معاملاتهم فى البلاد التى افتتحوها إلى الآن ، فأراهم أفضل لنا من الروم» .

دنا مرقس من الشيخ ، وهمس فى أذنه قائلا : « إن مولانا المقوقس مصمم على ما ذكرت ، فإذا رأى الغلبة للعرب انحاز إليهم وهو سيدنا وواليـنا . ولولا الحامية الرومية المراقبة لأعماله ، لفتح للعرب بلاده ولم يرم عليهم نبلا واحدا » .

فقال الجندى الآخر – واسمه جرجس – وكان يسمع حديثهما همسا : « ولكن كيف يكون هذا عزمه ، ويزوج ابنته لقسطنطين بن هرقل ، ويحملها بنفسه إلى بلبيس كما علمنا..».

فقطع الشيخ عليه الكلام قائلا : « كيف تستغرب ذلك وأنت تعلم أن تمنعه يؤدى إلى كارثة على سائر الأقباط ، وهو يود كتمان هذا الأمر إلى أن يقضى الله بما يشاء » .

أما بربارة فقالت للشيخ : « اسمح لى أن أتطفل عليك بالسؤال عن أمر يهمنى .. لقد سمعتك تقول أثناء حديثك أنك عرفت رجلا قادما من الشام ، وهو الذى أخبرك عن معاملة العرب لأهلها .. فهل أخبرك شيئا عن مجيء قسطنطين ؟».

قال الشيخ: « أظنه قال لى أن قسطنطين قتل فى إحدى المواقع .. ولكننى لم أتحقق من الخبر» .

فلما سمعت بربارة ذلك اختلج قلبها فى صدرها من الفرح، وأحبت أن تعرف الحقيقة ، فقالت : « إن الخبر إذا تحقق كان من الأهمية بمكان ، إذ يترتب عليه عودة سيدتى أرمانوسة إلى منف» .

فقال الشيخ : «يغلب على ظنى أن هذا الخبر منقول عن العرب، ولعلهم أشاعوه تثبيطا لعزائم الروم ، وعلى كل حال لاشىء يختفى إلا ويظهر » .

وظلوا فى حديثهم جزءاً من الليل إلى أن غلبهم النعاس فناموا.

بالقرب من بلبيس

كان المقوقس ومن معه فى موكبه قد برحوا عين شمس فى الفجر على أن يصلوا إلى بلبيس مساء ذلك اليوم وما دنوا من المدينة حتى خرج حاكمها وجندها ورجال حكومتها لاستقبال الموكب .

أما الحاكم فاستقبل المقوقس وحاشيته ، ونزلوا على الرحب والسعة .. وناموا تلك الليلة فى ساعة مبكرة التماسا للراحة .

وفى الصباح التالى أوصى المقوقس حاكم بلبيس خيرا بابنته وودعها على أمل اللقاء بها قريبا ، فبكت هى لفراقه بكاء مرا خوفا من أن يكون الوداع الأخير لعلمها بما هى فيه. واشتد عليها الحزن حتى بكت، وقضت اليوم فى الهواجس لا يهدأ لها بال ، ولا تنفك مطلة تارة من هذه النافذة وطورا من تلك ... تنتظر مجىء بربارة.

★★★

أما بربارة فتركناها مع الجنديين في عين شمس ، وقد باتوا وهم يعتزمون التبكير إلى بلبيس . فما أصبح الصباح حتي أسرعوا بالرحيل ، وودعوا الشيخ والقرية وساروا .

وكان مرقس منذ أن خرجوا من الحصن وهو مشغول البال ، وقد تمنى عند خروجه من الحصن ألا يجد المقوقس فى عين شمس رغبة منه فى الذهاب إلى بلبيس لغرض له بالقرب منها يهمه كثيرا .. ولكنه لم يخبر أحدا بذلك . فلما جاءوا عين شمس وعلموا برحيل المقوقس سر كثيرا ، وعند ركوبهم فى الصباح اعتزم أن يمر بالبلدة

التى له فيها ذلك الغرض ولا يعلم به رفيقه ..

فساروا وبربارة قلقة خوفا من تأخرها بالرسالة ، فلما كانت الظهيرة وقفوا للاستراحة والغداء ، ثم نهضوا وواصلوا سيرهم حتى أمسى المساء وهم على مسافة طويلة من بلبيس .. فأرادت بربارة أن يواصلوا السير حتى يصلوها ولو ليلا ، فقال مرقس : « الأفضل أن نبيت الليلة فى هذه البلدة، ونصل بلبيس فى الغد، لأن الطريق لاتخلو من الخطر» . فاستحسن الرفاق رأيه وعرجوا إلى بلدة بالقرب منهم وطلبوا مبيتا فى منزل قسيسها، فرحب بهم وخصوصا لما عرف أنهم من جند المقوقس ، فنزلوا عنده وأقامت بربارة فى غرفة النساء وهن لايعرفن حقيقتها ...

★★★

ولنعد إلى أرمانوسة ، فقد تركناها فى قصر حاكم بلبيس على مثل الجمر فى انتظار بربارة .. وكانت جالسة إلى النافذة تفكر فى حالها وما هى فيه من الخطر، بين أن تذهب ضحية عواطفها أو تسلم نفسها إلى من لا تحبه .. فأخذت تتلهى بما يقع نظرها عليه من بلبيس وضواحيها.

وبينما هى فى ذلك وقد خيم الغسق سمعت قارعا يقرع الباب فأذنت له ، فإذا ببربارة قد دخلت وهى لاتزال بثياب السفر، فقالت لها أرمانوسة: « أخبرينى يا بربارة عما حدث ، فقد قلقت كثيرا لغيابك» ..

قالت : «لاتقلقى يا مولاتى فقد جئتك بأخبار طيبة ، وابشرى بنجاتك وتحقيق أمانيك.. فإن البطل اركاديوس حبيبك مقيم على حبك، ثابت على ودك ، لا يستصعب أمرا فى سبيل الظفر بك».

قالت: « أصدقينى الخبر يا بربارة واشرحى الحكاية كما هى.. فمدت يدها إلى جيبها وأخرجت الخاتم، وقالت خذى هذه الأمانة أولا » .

فتناولته أرمانوسة ولما قرأت اسم أركاديوس عليه ، جعلت تقبله وهى تقول : « اعذرينى يا بربارة إذا استسلمت لعواطفى، ولكن كيف سلمه إليك وهو خاتم لايستغنى عنه فى ممارسة أعماله ؟» .

قالت : « دفعه إلىَّ على عجل ولم يفكر فى عاقبة ذلك ، وقد أراد أن تتخذيه دليلا على ثقته فيك» .. وقصت عليها الحكاية من أولها إلى آخرها ، فسرت أرمانوسة لثبات حبيبها وعزمه على التفانى فى سبيل إنقاذها .

البحث عن قسطنطين

ثم تذكرت بربارة ماسمعته من ذلك الشيخ عن قتل قسطنطين، فهرولت إلى سيدتها وعلى وجهها أمارات البشر ، وقالت :

«تذكرت أمرا ذا شأن كان يجب أن أطلعك عليه قبل كل شىء فقد سمعت أن قسطنطين قتل فى حربه مع العرب فى الشام» .

قالت أرمانوسة وقد خفق :

«ماذا تقولين يابربارة ؟» .

قالت : «سمعت ذلك ياسيدتى من الشيخ الذى بتنا عنده فى عين شمس»،فرفعت أرمانوسة يديها إلى السماء قائلة : «لا أريد بأحد سوءا ياربّاه ، ولكن لابد لأحدنا من الموت حتى لايرى الآخر .. فإن كنت قد أذنت بموت قسطنطين فلتكن إرادتك» . ثم قالت لبربارة: «وهل يمكننا أن نتحقق من ذلك ؟» .

قالت : «ليس لنا يامولاتى إلا أن نبعث رسولا إلى الشام يتجسس الخبر» .

قالت : «هلم فلنبعث أحدا .. ومن تظنينه أهلا لذلك ؟» فأطرقت بربارة برهة ثم قالت : «أرى أن نبعث مرقس ، فإنه شهم مقدام» .

ثم تذكرت كتاب البطريرك بنيامين إلى المقوقس وأنه لايزال معها فقالت: «وقد نسيت شيئا آخر لا أدرى ماذا ذهب به عن ذاكرتى» ..

قالت : «وما ذلك ؟» .

قالت : «هذا الكتاب» وأخرجته من جيبها ، فتناولته أرمانوسة وفضته وقرأت مافيه وقالت : «هذا يجب أن يصل إلى والدى سريعا .. فما العمل ؟» .

فقالت : «نبعثه مع جرجس .. فإنى قد اختبرت صداقته أيضا» .

ثم نادت جرجس وقالت له : «تعال معى» فتبعها حتى دخلت به فى غرفة من غرف القصر ، وقالت له : «هذا كتاب سرى .. عليك الاحتفاظ به جيدا ، وتطلب إليك مولاتى أرمانوسة أن تخفيه بين أثوابك ، وتحمله إلى والدها فى حصن بابل وتدفعه إليه بغير أن يشعر بك أحد .. فهل تستطيع ذلك؟..» .

فأمسك جرجس الكتاب وقال : «علىَّ تنفيذ أمرك .. وليكن قلبك مطمئنا ، فإن الكتاب سيكون بين يدى سيدى المقوقس غدا إن شاء الله» .

فقالت : «احذر أن ينكشف أمره ، فإن انكشافه يكون سببا فى هلاكنا جميعا .. أفهمت ما أقوله لك ؟» .

قال : «نعم ياسيدتى قد فهمته جيدا .. وهل أذهب الآن ؟» .

قالت : «خير البر عاجله .. ولكن احذر أن ينكشف السر» .

فطمأنها وخرج ، ثم استدعت مرقس وأجلسته فى غرفة بالقرب من غرفة مولاتها، ثم دخلت إلى مولاتها وأخبرتها بما فعلت بشأن الكتاب، ثم قالت: «وهذا مرقس ينتظر أمرك ..» .

قالت : «أريد أن يذهب حالا إلى الشام ، فإذا لاقى فى طريقه أحدا فليستطلعه الخبر وليعد إلينا، وإلا فليصل إلى بيت المقدس فإن العرب الآن فى طريقهم من بيت المقدس إلى هنا .. فلعله يظفر بهم فى الطريق أو يواصل السير إلى هناك» .

فخرجت ونادت مرقس ، ودخلت به على أرمانوسة.

وقالت له: «أتذكر يامرقس أن شيخ عين شمس أخبرنا بمقتل قسطنطين» .

قال : «نعم يامولاتى وذكر أنه لم يتحقق من الخبر ..» .

قالت : «صدقت .. ومرادنا الآن تحقيق هذا الخبر على يدك، فهل تستطيع القيام بهذه الخدمة من أجل مولاتنا ؟..» .

«سمعا وطاعة» وخرج يدبر وسيلة يسير بها ، ولكنه ما إن خرج حتى أدرك خطر تلك المهمة .. لأنه سيسير منفردا إلى أرض عدوهم ، وهو لايعرف لغة العرب ولا يفهم كلامهم ولا

شيئا من أحوالهم .. ولكنه صمم على تنفيذ الأمر.

فمكث بقية ذلك اليوم فى بلبيس يفكر فى ذلك حتى أمسى المساء، ثم ذهب لوداع بربارة .. وحالما رأته بشت له وسألته عما فعل، فقال : «ها أنذا ذاهب الليلة ..» .

قالت : «لا أرى أن تسير ليلا خوفا عليك من خطر الطريق .. وأرى أن تستحضر ثوبا مثل أثواب العرب لأنك إذا ألتقيت بهم وأنت بهذا اللباس قتلوك» .

فقال : «ولكننى لا أعرف لباسهم» .

قالت : «أنا أعرف لباسهم لأنى شاهدت عربيا جاء مرة إلى سيدى المقوقس بكتاب ، وكان ملتحفا شملة بيضاء وعلى رأسه عمامة من نسيج تلك الشملة . فعليك بثوب من نسيج القطن الأبيض أو من القباطى، وهو كثير عندنا ، وأنا أصنعه لك ثوباً وأعلمك كيف تلف العمامة» .

فسار توا إلى مكان يعرفه ، فابتاع قطعة من القباطى، وأعطاها إلى بربارة، فقصت منه قطعة جعلتها مثل العمامة ، وصنعت القطعة الأخرى على مثال الشملة وألبسته إياها ، وقالت : «فلتكن هذه الثياب معك مطوية حتى تدرك مكان العرب فتخلع لباسك هذا وتلبسها ، أما إذا لبستها منذ الآن فتكون فى خطر من جندنا .. وربما انكشف أمرك ..» .

قال : «ولكن ربما سئلت فى الطريق عن سبب سفرى وعلى لباس الجند .. فبماذا أجيب ؟..» .

قالت : «قل إنك ذاهب بأمر من السيدة أرمانوسة إلى حاكم الفرما فى حدود مصر شرقا، فإذا تجاوزت الفرما قليلا دخلت حدود الشام، فإذا التقيت بالعرب وتمكنت من طريقة لاستطلاع حالهم فافعل .. أما خبر قسطنطين فأنفذه إلينا حالا» .

البطريرك

فودعها ومضى.. وظل يسير حتى علم أنه على مقربة من الفرما، فلاحت منه التفاتة فى عرض تلك الصحراء، فإذا بنار

تضىء .. فقال فى نفسه ماذا عسى أن تكون تلك النار ، وقال لعلى إذا ذهبت إليها أسمع من أهلها خبرا أو أبيت عندهم الليلة .. ولم يسر قليلا حتى سمع صوتا استغربه ، فوقف صامتا والتجأ إلى شجرة من السنط فإذا بالصوت قد انقطع، ثم عاد فسمعه.

وفيما هو ينظر فى عرض الصحراء ، رأى فارسا راكبا حيوانا - غير الجواد - طويل العنق لايسمع لوقع أقدامه صوت، وكان سيره حثيثا ، ومرقس راقد على الرمال ، ولم يكن يريد النهوض ظنا منه أن الفارس سوف يمر ولا يراه ، فإذا به قد ناداه عن بعد بلغة الروم قائلا : «من الرجل ؟..» .

فلم ير مرقص بدا من الإجابة وخصوصا عندما سمعه يخاطبه باللغة اليونانية، فنهض وقال : «جندى .. ومن أنت ؟..» .

قال : «وأنا كذلك» ثم سمعه ينيخ الحيوان الذى كان يركبه ..

وإذا بالحيوان قد توسد الأرض وأخذ فى الجعير ، فتأمله فإذا هو هجين ، ولم يكن رآه إلا مرارا قليلة لأن الهجين والجمال لم يكن يعرفها المصريون ولا رأوها إلا مع العرب إذا جاءوا إلى مصر فى قوافلهم . وقدوم القوافل إلى منف نادر ، ولكن مرقس شاهد الهجين مرة وقد جاء عليه رسول بكتاب من بلاد العرب إلى المقوقس ، فلما رأى ذلك الرجل قادما على الهجين علم أنه آت من معسكر العرب ، ولكنه عجب لأنه تكلم باللغة الرومية فأوجس خيفة .. فأعد خنجره للدفاع إذا اقتضت الحال . ثم رأى الرجل قد شد حبلا عند ثنى ركبة الهجين ومشى نحوه، فقال له مرقس : «قف عندك .. وقل من أنت قبل أن تقترب» ، فقال : «إذا كنت من جند الروم بمصر فلا تخف .. فإنى من جندهم فى بلاد الشام» ، وأقسم له بالمسيح والقديسين أنه لن يؤذيه ، فدنا منه مرقس وهو لايزال يحاذر .. فإذا هو بلباس الجند الرومانى ولكنه ما برح مرتابا فى أمره لركوبه الهجين ، فقال له : «كيف تقول إنك رومانى وأراك راكبا هجينا ؟..» .

قال : «سأقص عليك خبرى متى جلسنا» فدنا منه ولم يستطع تمييزه جيدا لشدة الظلام ، ولكنه تحقق من ملامحه أنه رومانى وخصوصا حين رأى لباسه وسمع كلامه ..

فلما اقتربا سلما ، وسأله مرقس: «ما اسمك ؟ وماخبرك ؟..» .

فأمسكه بيده وجلسا على حجر ، وقال له: «أما اسمى فهو بروفس وأنا جندى من جنود البطريرك يوقنا عامل الروم على حلب الشهباء ، وأما ركوبى الجمل فله أسباب سأقصها عليك متى أخبرتنى من أنت ..» .

قال: «إنى رسول من مولاى المقوقس ذاهب إلى الفرما فى مهمة خاصة» ..

قال: «ويكفينى أنك من جند الروم. وأشكر الله لأنى التقيت بك هنا، فأستفيد منك أمورا ربما كفتنى مؤونة المسير إلى بلبيس..» .

قال : «ألعلك كنت ذاهبا إليها ؟..» .

قال : «نعم كنت ذاهبا برسالة إلى أرمانوسة بنت المقوقس» ، فلما سمع مرقس اسم أرمانوسة أستأنس بالرجل واستبشر بالخير ، فقال : «ومن أرسلك بهذه الرسالة ؟.. لقد وقعت على خبير لأن أرمانوسة سيدتى .. فما غرضك منها ؟..» .

قال : «أما مرسلى فهو البطريرك يوقنا صاحب حلب وهو الآن فى ذلك المعسكر عند هذه النار .. وأما رسالتى فهى خاصة لا علاقة لها بالحرب» .

قال : «وما الذى جاء بكم إلى هنا وأنتم من حامية حلب ؟» .

قال : «لما استولى العرب على حلب أخرجونا منها ، فالتقى سيدى بقسطنطين ابن الإمبراطور وهو فى قيسارية .. فبعث به مع جماعة من جنده ليحمل إليه خطيبته أرمانوسة» .

فقال : «وأين هو قسطنطين الآن ؟» .

فقال : «هو قادم فى بحر الروم بمراكبه التى سترسوا عند دمياط حيث يكون فى انتظارنا ليحمل خطيبته إلى القسطنطينية» .

فاتضح الأمر لمرقس وعلم أنه أصاب ضالته عفوا ، فقال : «إذا كانت الحال كما ذكرت فأخبرك بالحقيقة ، إنى رسول من مولاتى أرمانوسة وليس من المقوقس . وكل ماتريد أن تعلمه عنها أطلعك عليه لأنى عالم بكل شىء» .

قال : «هل هى بخير ، وهل هى مستعدة للسير إلى مولانا ؟» .

قال : «نعم .. إنها كذلك .. وقد جاءت بلبيس منذ أيام فى انتظاره . ولكنك لم تخبرنى عن سبب ركوبك هذا الجمل » .

قال : « لما فتح العرب حلب أمسكوا مولاى يوقنا وجماعة من رجاله – وفى جملتهم أنا – فبقينا معهم نؤاكلهم ونشاربهم ونرافقهم فى أسفارهم ، فتعودنا ركوب الجمال والهجن لأننا رأيناها أسرع عدوا من الخيل فعولنا عليها فى السفر السريع» .

فقال مرقس : «وهل فى معسكركم هذا جند من العرب ؟» .

قال : «لا» .

فقال : «وهل علمتم شيئا عن عزمهم على غزو مصر ؟» .

قال : «علمنا أنهم قادمون إليها.. ولعلهم الآن فى العريش» ..

فبغت مرقس مدة وهو يتأمل ماسمعه من بروفس ، فلم يره منطبقا على أحكام العقل ، ولم يفهم كيف أنهم خالطوا العرب وآكلوهم وعاشروهم حتى تعلموا ركوب الجمال وكيف أنهم قادمون لحمل أرمانوسة إلى قسطنطين، فقال له : «وهل اعتنق مولاكم يوقنا ديانة هؤلاء العرب ؟..» .

فتوقف بروفس عن الجواب برهة ، ثم قال : «قد اتهمه بعضهم بذلك ، ولكنه برىء منه» .

فأدرك مرقس أن الحكاية ليست على بساطتها، وأساء الظن بما سمعه من الرجل، ولكنه خشى إذا أظهر له الشك أن يغدر به .. فتظاهر بتصديق كلامه ، ثم قال: «ولكننا سمعنا خبرا كدرنا كثيرا عن قسطنطين» ، وأراد إتمام الكلام ، فابتدره بروفس قائلا : «إذا كنت تعنى ما أشاعه العرب عن قتله، فهو خبر عار من الصحة ، لأن مولانا قسطنطين بخير وسلامة ينتظر وصول عروسة» .

فقال مرقس فى نفسه : «قد تحققت بقاء قسطنطين حيا فهل أرجع بالخبر أو أواصل الاستقصاء عن حال العرب وقوتهم ، لعلى أعود بشىء مفيد لسيدى المقوقس فأنال حظوة فى عينيه» ، فرأى أن يواصل السير .

فقال لبروفس : «إنك إذا قدمت إلى سيدتى أرمانوسة وأنبأتها ببقاء عريسها حيا تسر بك كثيرا .. فعجل بالمسير وأخبرها بأننى قد علمت ذلك منك ، وأنى ذاهب لإتمام مهمتى فى الفرما» وقد أراد أن يواصل استقصاء أخبار العرب ، ولكنه رأى أن يغتنم تلك الفرصة للدخول إلى معسكر يوقنا ، فيستفيد منهم شيئا يساعده على تحقيق هدفه ، فقال لبروفس : «هل لك أن ترافقنى إلى مولاك يوقنا لعله يريد أن يستوضحنى أو يسألنى شيئا ؟..» .

فقال : «لا أستطيع العودة معك .. ولكننى أعطيك شعار الليل ، فإذا وصلت إلى المعسكر وسألك أحد من أنت ، قل له : «السلام عليكم» ، وأفهمه نطق هاتين الكلمتين بالعربية وهو لايفهم معناهما ، ولو فهم المعنى لأدرك أنها كلمة تدل على إسلام قائلها أو انتمائه للمسلمين ، فكررها مرارا على سمعه حتى حفظها . ثم تأمل مرقس فى ثياب بروفس ، فإذا هى تختلف عن ثيابه ، فخشى إذا دخل معسكر يوقنا بثيابه أن ينكشف أمره ، فأراد أن يحتال على بروفس ليأخذ ثيابه فقال : «ألا تخاف يا أخى إذا ذهبت بثيابك هذه ألا يثق فيك المصريون» قال له : «ولماذا ؟» .

قال : «إنهم يرونك غريبا ، وربما أوقعوا بك شرا وخصوصا وأنت تلبس هذا اللباس . وبما أنك سائر إلى سيدتى أرمانوسة أرى أن أخلع لك ثيابى هذه فتلبسها – وهى لباس جند مصر – فإذا مررت فى البلاد لايستغربك أحد» .

فاستحسن بروفس الرأى وتبادلا الثياب ، وقد فرح مرقس فرحا لا مزيد عليه بنجاح حيلته ..

ثم نهض بروفس وركب هجينه ، أما مرقس فجعل يفكر فى حاله وما سمعه منه ويقيسه ويطبقه بعضه على بعض .. فأدرك أن فى الأمر

خداعا أو مكيدة ، فقال فى نفسه فلأذهب إلى معسكر يوقنا لعلى وأقف على الحقيقة ..

فسار قاصدا تلك النار حتى كاد يقترب منها ، فسمع أصوات الجمال عن بعد ، فخيل له أنه ذاهب إلى معسكر العرب لا معسكر الروم . ولكنه توكل على الله ومشى ، وإذا بفارس قد اعترضه قائلا :

– «من أنت ؟» فأجابه مرقس : «السلام عليكم» فأخلى سبيله ، فدخل مرقس المعسكر وهو يتأمله ، فإذا هو مؤلف من عشرات الخيام بعضها بدوى وبعضها رومانى ، فجعل يخطر بينها وهو ينظر فى حال الجند .. فإذا هم من الروم وفيهم بعض البدو ، فدهش لذلك واختلط بهم ، وتظاهر أنه واحد منهم كان قد تخلف فى الطريق ثم لحق بهم ، وما زال سائرا حتى بلغ خيمة البطريرك فرأى الحراس محيطين بها بسلاحهم ، وكانت خيمة كبيرة تسع جماعة كبيرة . فقال فى نفسه : «فلأصبر إلى الغد فأرى ماذا يكون» ..

ومرت تلك الليلة وهو يسمع الأحاديث ويحفظها ، فاستنتج منهم أن يوقنا فى وفاق مع العرب ، وأن العرب قد أصبحوا على مقربة من هناك ..

ولما أصبح الصباح بكر مرقس إلى خيمة يوقنا ، فإذا بالحرس وقوف عند بابها ، ويوقنا جالس فى صدره وعليه رداء غير رداء الرومان ، وفوق الرداء جبة وعلى رأسه عمامة ، وسمع الناس إذا ذكروه سموه باسم غير اسمه الأصلى .. فترجح لديه أن الرجل قد اعتنق الإسلام أو هو فى خدمتهم ، وأيد ظنه هذا خلو المعسكر من شعائر النصرانية وأهمها الصلبان ، وكان الروم يتخذونها شعارا لهم فى الحروب فيحملونها مع الأعلام فى مقدمة الجند ، فإذا عسكروا نصبوها بجانب الأعلام .

ثم تحول عن الخيمة وجعل يطوف المعسكر يتفقد حاله ، لعله يقف على شىء من أمر العرب .. فلما وصل إلى أطراف الخيام شاهد رجلا جالسا على ربوة بالقرب من المعسكر ينكت الأرض بعصا فى يده كأنه يفكر فى أمر أقلقه ، وقد أمسك بإحدى يديه على شىء

يشبه الرق .. فوقف مرقس عن بعد يراعى حركاته وسكناته ، فإذا بالرجل فى لباس جند يوقنا ينكت الأرض تارة وينظر إلى ذلك الرق طورا وهو يحاذر أن يراه أحد ، ثم التفت إلى جهة المعسكر فرأى مرقس .. فعجل بإخفاء الرق وتظاهر بأمر يتشاغل به.

وأمعن مرقس النظر فى وجهه ، فإذا هو ليس رومانيا ولا مصريا فعجب لأمره وأراد أن يتقدم نحوه لعله يقف منه على خبر جديد ، فخشى أن تحول جرأته هذه بينه وبين مايريد .. فتجاهل الأمر وتحول عن المكان ودخل المعسكر ، فلما أمسى المساء ، التقى به فى خيمة يتناول العشاء مع الجند فتأمل وجهه .. فتذكر أنه يعرفه ، ولكنه لايذكر أين شاهده ولا ما اسمه ، فبقى صامتا ينظر إليه تارة ثم يتشاغل عنه بمناظر أخرى لئلا يلحظ منه ذلك . ثم رآه ينظر إليه كأنه يريد التعرف به فتجاهل مرقس خيفة انكشاف أمره ، ولكنه كان كثير التشوق إلى معرفة حاله وماهو قادم من أجله .. فلبث ريثما انتهى وقت العشاء وأخذ الناس يتفرقون ، فإذا بذلك الغريب قد خرج من تلك الخيمة ومشى إلى خيمة من خيام العرب ودخلها وجلس إلى بعض من فيها وجعل يكلمهم بلغتهم ، فعجب مرقس لمعرفته اللغة العربية وازداد تشوقا ينتظر خروجه من الخيمة .. فمضى هزيع من الليل ولم يخرج ، ثم كان منتصف الليل قال فى نفسه: فلأنتظر حتى الصباح .. ثم ذهب لينام ..

عمرو بن العاص

ولما كان الصباح التالى ، أفاق مرقس على ضوضاء الجند .. فنهض مذعورا وهو لا يعلم السبب ، فإذا بهم قد تجمهروا وخرجوا من المعسكر ينظرون إلى جهة الشاطىء .. فرأى غبارا يتصاعد فى عرض الصحراء والناس يتطاولون بأعناقهم وقد علا ضجيجهم ، وفى مقدمتهم يوقنا يجر حسامه وراءه تيها وقد أحاطت به حاشيته ، وكلهم ينظرون إلى جهة الغبار .. فسأل مرقس عن سبب ذلك ، فقيل له إن العرب قادمون فتظاهر بأنه عالم بقدومهم لئلا يشتبهون فى أمره ، ثم علم أنهم جند عمرو بن العاص القادم لفتح مصر ..

فلبث واقفا بين الواقفين وقد نسى رجل الأمس ، على أنه حاول أن يراه فيمن حوله من الناس فلم يره، فاعتزم أن يبحث عن مكانه.

ونظر إلى موكب يوقنا ، فإذا هو مؤلف من حاشيته وكلهم فى الزى الرومانى إلا يوقنا .. فقد لبس العمامة وتقلد الحسام وسمع الناس ينادونه باسم عبدالله ، فتحقق أنه اعتنق الإسلام لا محالة ، وخصوصا عندما رآه مستبشرا بقدوم جيش العرب ..

لبث مرقس واقفا حتى انكشف الغبار عن جند عظيم يتقدمهم الفرسان على خيول عربية تسابق الرياح، والأعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملها القواد وغيرهم . وفى المقدمة رجلان على هجين، فعلم أنهما الدليلان يقودان الجند ومن ورائهما الفرسان وفى مقدمتهم فارس على جواد من خيل اليمن وعليه العدة والسلاح ، وفى ركاب الفرسان جماعة من العبيد يسوسون الخيل .. فلما التقى الفريقان تقدم يوقنا إلى كبيرهم، وتصافحا وتعانقا ثم سلم على الباقين بين مصافح وغير مصافح ، وعاد يوقنا معهم وقد أخذ كبيرهم بيده . فسأل مرقس عن اسمه، فقالوا إنه البطل الشهير عمرو بن العاص .. وكان قد سمع به كثيرا فتفرس فيه فإذا هو قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة، وقد أحاط به وبيوقنا رجال من كبار العرب يهللون ويكبرون .. فتنحى مرقس جانبا ليرى عدد الجند ، فإذا هم مالئون تلك الصحراء ، وفيهم الفرسان والهجانة والمشاة وحملة الأعلام ، وقد لبس كبارهم العمائم الخضر وتقلدوا السيوف والخناجر. وأما المشاة ففيهم نقلة الرماح ونقلة النبال ، فجعلوا يتفرقون كل جماعة إلى ناحية يتقدمهم علم خاص بهم ينصبون الخيام ويضربونها.

أما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلا خيمته للاستراحة ، فلبث مرقس ليشاهد بقية الجند وقد أراد أن يعرف عددهم .. فعلم أنهم يزيدون على أربعة آلاف. وبعد أن تفرق الجند فرقا ونصبوا الخيام ،

وصلت جمال الساقة ومعهم الهوادج والأحمال، وفى الهوادج النساء والأولاد.. فأنزلوهم على مسافة من الجند ونصبوا لهم الخيام.

فتحول مرقس إلى خيمة الأمير فرآها قد شغلت بقعة كبيرة من الأرض، ولكنه لم يشاهد فى فرشها كرسيا ولا مقعدا كما كانت الحال فى خيام الروم إذا نزلوا.. وشاهد أمام الخيمة علما هائلا عليه رسوم كأنها كتابة باللغة العربية لم يفهمها أما جند الروم فكانوا يرحبون بجند العرب كأنهم كانوا قد فارقوهم على موعد، ففهم من جملة ذلك أنهم كانوا قد جاءوا هناك فى انتظار وصولهم.

ثم تحول نحو خيمة يوقنا ، فرأى عمرو بن العاص قد خرج منها وسار نحو خيمته يصحبه كبار قواده .. فاقترب منها على قدر ما مكنته الظروف ، فإذا بعمرو قد جلس فى صدرها متربعا على وسادة من الحرير .. وجعل السيف على فخذه وإلى كل من جانبيه رجال من العرب فى مثل لباسه ، ويوقنا بين يدى عمرو يرحب به .. وبينهما ترجمان كان قد شاهده قادما مع عمرو يحمل العلم فسمع عمرا يناديه «وردان» فعلم أن ذلك اسمه .. وبعد هنيهة سمع قراءة باللغة العربية وتجويدا ، فنظر فرأى رجلا عربيا جالسا فى أحد جوانب الخيمة يقرأ عن ظهر قلب بنغم مطرب .. والناس جلوس ووقوف يصغون ويطربون لسماع ذلك النغم، ثم التفت بغتة إلى من حوله فإذا بالرجل الذى كان قد شاهده بالأمس واقفا إلى جانبه ، فأراد أن يخاطبه فسأله عن اسم الرجل الجالس فى صدر المكان ، فقال باليونانية : «هو الأمير عمرو بن العاص» ، فلحظ مرقس من لهجته أنه دخيل على اللغة اليونانية ، فخاطبه بالقبطية وسأله عن هذا التجويد فقال : «إنهم يقرأون كتابا عندهم اسمه القرآن ، وهى عادة يتبركون بها» ، فرأى مرقس أن اللغة القبطية أيضا ليست لغته، فرغب فى السؤال عن حاله فقال له : «وبأى لغة يقرأون ؟» .

قال : «باللغة العربية» فقال : «وهل تفهم لغتهم ؟» .

قال : «نعم أفهمها جيدا وهى لغتى .. وأنت ماهى لغتك ؟» .

فقال : «إنى من جند الروم» .

قال : «ولكننى أراك تتكلم القبطية وملامحك قبطية ، فهل أنت من أهل مصر؟» فاضطرب مرقس وخشى أن ينكشف أمره فقال : «قلت لك إنى من جند الروم ، وفيه من سائر الملل ..» .

فتبسم الرجل وقال بالقبطية همسا : «قل ولا تخف عنى الحقيقة .. إنى لا أريد بك سوءا ، ولعلك إذا صدقتنى تنال خيرا.. ولو خفيت حقيقة حالك ما خفيت عنى» .

فقال مرقس : «وأظننى أعرفك أيضا .. وكأننى رأيتك قبل هذه المرة فى الأسكندرية..» .

فقال الرجل عند ذلك : «أنت إذن مرقس تابع المقوقس، رأيتك فى الأسكندرية وقد جئت بيت يحيى النحوى الأسكندرانى بعد انحيازه لجماعة اليعاقبة مع المقوقس .. ألا تذكر ذلك ؟..» .

قال : «نعم أذكر ذلك جيدا .. فأنت إذن زياد العربى ..» .

قال : «نعم أنا هو زياد فلا تخف .. فهل جئت هذا المعسكر تتجسس أحوال العرب ؟..» .

قال مرقس : «لا والله .. وإنما ساقتنى إليه الأقدار عن غير قصد منى . وأنت ما الذى جاء بك إلى هذا المكان؟..» .

قال : «أما مجيئى إلى هذا المكان فقد كان لمهمة لا أخفيها عنك، قصتى سأقصها عليك على انفراد لئلا يسمعنا جند الروم ونحن نتكلم بالقبطية فيشتبهون فى أمرنا» .

قال له مرقس : «حسنا . فلنتكلم الآن بالرومانية .. فإنى أريد الاستفسار منك عن بعض ما أشاهده فى هذا الجيش ، وقد عجبت لحال هذا الأمير وسررت لما أرى فى وجهه من الصباحة وما يتجلى على محياه من الشجاعة والشهامة .. ولا عجب إذا ساد العرب على الدنيا بأجمعها إذا كانت هذه حالهم . وهل عرفت شيئا عن حال يوقنا هذا فإنى أراه روميا ، ولكنه يلبس العمامة ويتزيا بزى العرب ، وهذا جنده فى لباس الروم» .

فتبسم زياد كأنه يفتخر بجنس العرب وقال : «إن العرب أهل

شهامة وإقدام وشجاعة . ولا غرو إذا فتحوا الأمصار وأخضعوا الملوك.. انظر إلى ابن العاص فإنه من خاصة رجالهم ، وأنا أعرفه منذ كان جاهليا وهو يعرفنى جيدا، ولعله اذا رآنى الآن نادانى باسمى ورحب بى وأجلسنى إلى جانبه .. ولكننى لا أريد أن يكون ذلك بمحضر من الناس إكراما لمن أرسلنى لأنه يود أن تكون رسالته سرية» ..

فقال مرقس: «ومن هو هذا الترجمان الذى ينقل الكلام بين يوقنا وعمرو؟» .

قال : «هو وردان مولى عمرو.. وهو يعرف اليونانية جيدا ويعرف القبطية أيضا وأنا لم أعرفه قبل الآن ،وسأعرف الليلة حكايته وحكاية هذا الجند وأطلعك عليها» ..

فقال مرقس : « أحب كثيرا أن اعرف حقيقة حالك وماذا جئت من أجله لكى يكون كلامنا أكثر إيضاحا» ..

قال : «تعال ننفرد جانبا..» وأخذ بيده وخرجا من المعسكر والجند مهتمون بشئونهم، فلم يلتفت إليهما أحد حتى وصلا إلى مأمن.. فجلسا..

فقال زياد : «اسمع يا مرقس.. سأقص عليك خبرى على شرط أن تحكى لى حكايتك وحقيقة ما جئت بشأنه» ، قال : «أقسم برأس سيدى المقوقس وحرمة الصليب أنى اخلصك القول» ..

قال : «أنا اسمى زياد كما تعلم.. وأما سبب دخولى الاسكندرية وتمصرى واعتناقى النصرانية فهو أنى كنت من رفاق عمرو بن العاص منذ كان فى الجاهلية ، أعنى قبل أن يظهر الاسلام وينتشر ، وكانت ديانتنا الوثنية ، كأكثر عرب الجاهلية - وكنت مرافقا لعمرو حيثما توجه ، وكنا نحمل تجارة على جمالنا الى بيت المقدس فى جماعة من قريش.. فمررنا يوما بضواحى تلك المدينة فإذا بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس، وكان قد خرج فى بعض جبالها يتجول. وكنا وعمرو نرعى إبلنا وكانت رعاية الإبل تناوبا بيننا - فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد اصابه عطش فى يوم شديد الحر ، فوقف عند

عمرو فاستسقاه فسقاه من قربة له فشرب حتى ارتوى .. ونام الشماس مكانه، وكانت إلى جانب الشماس حيث نام حفرة.. فخرجت منها حية عظيمة رآها عمرو فصوب إليها سهما فقتلها ، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها، فقال لعمرو: «ما هذه ؟» ، فأخبره أنه رماها فقتلها، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : «قد أحيانى الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية.. فماذا جعلك تقدم إلى هذه البلاد ؟» .

قال : «قدمت مع أصحاب لى نطلب الربح فى تجارتنا» ، فقال له الشماس : «وكم ترجو أن تربح فى تجارتك ؟» ، قال: «رجائى أن أربح ما أشترى به بعيرا، فإنى لا أملك إلا بعيرين، وأطمع فى أن يكون لى بعير ثالث » ..

فقال له الشماس : «أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى؟» قال : «مائة من الابل» فقال له الشماس : « لسنا أصحاب ابل ، إنما نحن أصحاب دنانير، فكم تساوى هذه الإبل» ، قال : «تكون ألف دينار» فقال له الشماس : «إنى رجل غريب فى هذه الجبال شهرا.. جعلت ذلك نذرا على نفسى، وقد وفيت بالنذر وأريد ان أرجع الآن إلى بلادى. فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، لأن الله عز وجل أحيانى بك مرتين» ، فقال له عمرو : «أين بلادك ؟» قال : «مصر .. فى مدينة يقال لها الاسكندرية» ، فقال له عمرو : «لا أعرفها ولم أدخلها قط» فقال: «لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل مثلها قط» . قال له عمرو : «وتفى لى بما تقول؟» ، فقال له الشماس: «نعم لك والله على العهد والميثاق أن أفى لك وأن أردك الى اصحابك» ، فقال له عمرو : «وكم يتطلب ذلك من الوقت؟» قال : «يتطلب شهرا.. تنطلق معى ذاهبا عشرا، وتقيم عندنا عشرا ، وترجع فى عشر. ولك علىَّ أن أحفظك ذاهبا، وأن أبعث معك من يحفظك راجعا» ، فقال له عمرو: «انتظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك» .

فانطلق عمرو فشاورنا فيما عاهده عليه الشماس ، وقال لنا :

«تقيمون هنا حتى أرجع اليكم ، ولكن على العهد أن أعطيكم جانبا منه، على أن يصحبنى رجل منكم آنس به» . فقلنا : «نعم» ، وبعثونى معه .. فانطلقنا مع الشماس حتى انتهينا إلى مصر ، فرأينا من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ، فقال عمرو للشماس: «مارأيت مثل ذلك» ، ومضينا إلى الاسكندرية فنظرنا إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة اهلها ، فازددنا عجبا. ووافق دخولنا الاسكندرية عيدا عظيما فيها ، يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم .. ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم ، ويقال إنها إذا وقعت فى كم رجل واستقرت فيه لم يمت حتى يملك عليهم..

فلما قدمنا الاسكندرية اكرمنا الشماس الإكرام كله ، وكسا عمرا ثوب ديباج ألبسه إياه وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة وهم يتلقونها بأكمامهم وأنا جالس على حدة.. فرمى بها رجل فاقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ، فعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة، أترى هذا الأعرابى يملك علينا.. هذا مالا يكون أبدا ، ثم مشى الشماس بين أهل الاسكندرية وأخبرهم ان عمرا أحياه مرتين وأنه قد ضمن له الفى دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم ففعلوا ، ودفعها إلى عمرو فانطلق ومعه دليل يريه الطريق..

أما أنا فلما رأيت الاسكندرية وما فيها من العظمة وأسباب الرفاهية فضلت البقاء فيها.. فاستأذنت عمرا فى ذلك ، فأنكر على الأمر، فقلت : «بل أبقى .. فإذا لم أجد راحة عدت اليك» ، فتركنى ومضى وبقيت أنا. وكان فى جملة من شاهدنا من رجال الاسكندرية عالم كبير هو يحيى النحوى ، وكان يعرف شيئا يسيرا من اللغة العربية فأبقانى عنده لأعلمه لغتنا.. أو لعل له غرضا آخر لم أعلمه، فسررت ببقائى عنده، وعجبت بزينة الاسكندرية وبذخها وعمارتها .. وكنت قد تعلقت بيحيى هذا وتعلق بى وصار يأتمننى على أسراره ويركن إليّ فى سائر شئونه ، فبعث الى ذات يوم فجئته فقال لى:

«مارأيك يا زياد؟» .. قلت : فى «ماذا؟» ، قال: «إنى أرى من ظلم هؤلاء الروم وعتوهم وعسفهم ماكادت تزهق له روحى وقد سمعت بما قام به عرب الحجاز هذه الأيام وما فتحوه من الأمصار حتى أخرجوا الروم من الشام والعراق وغيرهما ، وقد علمت أنهم قادمون إلى مصر بإمارة صاحبك عمرو ويلوح لى أنهم سيفتحونها عنوة كما فتحوا غيرها من الأمصار ، وقد أخبرنى بعض الرهبان الذين فروا من وجوههم من دمشق وغيرها أنهم قوم اشداء يصبرون على الحرب صبر الأسود .. لايهابون الموت ولا يخافون السيوف، وأنهم مع ذلك أهل مروءة وذمام ، فإذا جاءوا مصر فأظنهم يفتحونها لا محالة . ولا يخفى عليك أن جماعة القبط يكرهون الروم لما بينهما من الاختلاف المذهبى المشهور، والمقوقس رئيس القبط – وهو حاكم البلاد – على مذهبهم ، وقد أوعز الى سرا أنه يفضل العرب على الروم إذا ضمنوا له حياته وعاهدوه على الدفاع عن القبط. ولكن المقوقس لايستطيع المجاهرة برأيه هذا ولا يرى وسيلة لإبلاغ هذا الرأى إلى العرب، وقد وكل إليّ أن أبلغ رسالته إلى العرب. ولا أرى رجلا أثق به وأركن إليه غيرك وخصوصا لأنك تفهم لغتهم وتعرف قائد حملتهم نفسه، فأنت افضل من ننتدبه لهذه المهمة. فهل لك أن تقوم بها؟ وهل تظن أن العرب إذا عاهدوا على أمر قاموا بعهدهم؟» .

قلت : «نعم يا سيدى إن العرب أكرم الناس أخلاقا وأوفاهم عهودا.. ولك فى خادمك هذا دليل واضح، وأنا واثق أن العرب إذا عاهدوكم على أمر قاموا بعهدهم»..

فدفع الى كتابا مكتوبا على ورق البردى باللغة القبطية ، وهو الذى رأيته بيدى أمس ، وقال لى : «خذ هذا الكتاب واذهب به الى معكسر العرب كى تسلمه لعمرو بن العاص بعد ان تشرح له الحالة شفاها» ، فحملت الكتاب وخرجت من الاسكندرية ابحث عن العرب ومقامهم حتى علمت انهم قادمون الينا وسينزلون هذا المكان، فجئت صباح البارحة ووصلت الى هذا المعسكر فرأيته للروم وفيه بعض العرب.. فاختلطت بهم وتظاهرت انى من عرب غزة وانى رافقتهم،

وان ثيابى هذه سلبتها من عساكر الروم هناك ولبستها، فعلمت منهم ان عمرا سيصل قريبا الى هذا المكان فقلت لأصبرن حتى يجىء وأقضى مهمتى » ..

فلما سمع مرقس قصته استوثق منه وركن اليه وعلم انه على دعوته وانهما شريكان فى الأمر ، ولكنه تعجب لحكاية عمرو واستبشر بوقوع الكرة فى كمه، وقال : «يلوح لى يازياد أن الكرة لم تخطىء موضعها» ، ثم عاد الى ما شغل باله من امر يوقنا ، فقال: «هل علمت امر يوقنا هذا وسبب اسلامه ؟»

قال : « علمت من بعض رجال العرب هنا انه كان حاكما على مدينة حلب من بلاد الشام، وانه لما رأى فوز العرب وشدة بطشهم وقد فتحوا مدينته ، انحاز اليهم واعتنق ديانتهم ، وأما رجاله فهم مطيعون له فى حربه ، ولكنهم فى الغالب باقون على ديانتهم» .

فتذكر مرقس حينئذ ما قاله رسول يوقنا الذاهب إلى أرمانوسة ، فقال فى نفسه: «ان الرجل كاذب مخادع ، وأظنه يريد بسيدتى أرمانوسه سوءا .. فهو يتظاهر انه قادم بأمر قسطنطين بن هرقل وهو انما يريد حملها لنفسه، والله لأكيدن له كيدا» ..

فقال زياد : «ها أنا قد اطلعتك على حقيقة امرى.. فما هى حقيقة أمرك ؟» ..

قال مرقس : «ارى يا أخى ان بين حكايتى وحكايتك تشابها، وما يهم الواحد يهم الآخر» ، وحكى له ما جاء من أجله بشأن أرمانوسه ، ثم قال : «ولكننى قلق الآن على سيدتى أرمانوسة ولا أدرى كيف أنقذها ، فقد بعث اليها يوقنا رسولا يدعى انه مرسل من قبل قسطنطين خطيبها .. وقد علمنا الآن انما جاء نصيرا للعرب على فتح مصر، فأية علاقة بين الأمرين .. والله لا أراه إلا يريد شرا بسيدتى وقد أصبحت فى قلق عليها من أجل ذلك، فما رأيك» ..

ففكر زياد قليلا، ثم قال : «لا تبال بهذا الخائن، فإنى على يقين من حسن ذمام العرب.. وإذا أخبرنا عمرا بحقيقة الأمر وعاهدناه على حفظها فإنه يقوم بعهده ، وغدا ان شاء الله أدخل عليه واطلعه على

جلية الخبر.. واذا شئت أن تكون معى فإنك ترى بعينيك وتسمع بأذنيك ما قلته لك عن شهامة العرب وكرم اخلاقهم ، ولكننى اود أن ادخل عليه بلباس البدو لكى يعرفنى حالما يرانى » ..

فتذكر مرقس الثياب التى حملها من بلبيس فقال: «إن عندى ثوبا حملته من بلبيس ، فهل تريد ان تلبسه؟ » ففرح زياد به وقال : «أود كثيراً ان أدخل عليه به ، فأين هو ؟» ..

قال : «قد خبأته فى مكان وسأعطيه لك الليلة» .

ولما غابت الشمس ، سمعا المؤذنين يؤذنون وقد قام المسلمون للوضوء والصلاة. وبعدها تناولوا الطعام ثم اجتمع الأمراء فى خيمة عمرو، وبين ايديهم قراء القرآن يتلون الآيات والناس يذكرون ويكبرون ويشكرون الله على ما آتاهم من النعم ويسألونه النصر على الأعداء .

فقضيا تلك الليلة فى معسكر يوقنا لأنهما كانا فى لباس الروم مثل عسكره ، وبكرا فى الغداة فلبس زياد لباس البدو.. فالتحف الشملة وتعمم بالعمامة ، وسارا من معسكر يوقنا حتى وصلا الى معسكر عمرو، فدخلا بين الخيام فإذا بالعرب قد قاموا للصلاة وكلهم ركع يصلون . وشاهدا على كثير منهم ثيابا رومانية ودروعا واسلحة وادوات من ادوات الروم يستعلمونها فى قضاء حوائجهم ، فقال زياد : «انظر يا مرقس الى آثار النصر وبقايا الفتح.. ان هؤلاء العرب لم يرتدوا طيلة حياتهم مثل هذه الألبسة ، ولا رأوا مثل هذه الأدوات التى غنموها من الروم فى حروبهم بالشام» ..

المسارة

ومازالا يسيران حتى وصلا الى فسطاط الأمير . فلما اقتربا استقبلهما وردان عند الباب ، وقد عجب لاجتماع هذين الرجلين على تناقض فى لباسهما ، فسألهما عن غرضهما ، فقال زياد بلغة عربية فصيحة : «نريد مقابلة الأمير» ...

فقال وردان : «ومن الرجلان ؟» ..

قال زياد «رسولان يريدان الدخول على الأمير» .

فدخل وردان ثم عاد ففتح لهما الباب ، فدخل زياد بعد أن خلع

نعليه كعادة العرب ، وعمرو جالس فى صدر الخيمة ، وأمراؤه بين يديه .. فلما دخل زياد اراد ان ينبه عمرا الى حاله بتحية الجاهلية ، فقال : «أبيت اللعن ايها الأمير» ..

فبغت عمرو وأرباب مجلسه من هذه التحية ، وقد كادوا ينسونها لاستبدالها بعد الاسلام بتحيتهم : «السلام عليكم» فأجابه عمرو على الفور : «أعوذ بالله من كفر الجاهلية .. ما بالك تحيينا بتحية الجاهلية يا أخا العرب ؟» ، قال ذلك ونظر الى الرجل فتذكر انه يعرف ولكنه لم يتذكر اسمه ، لأنه افترق عنه منذ عشرين سنة أو أكثر .. فقال عمرو : «من الرجل ؟» ..

فأجاب زياد : «إن الرجل أخوك فى الجاهلية ورفيقك الى الاسكندرية» ...

فتذكره عمرو فنهض له قائلا : «أهلا بزياد» وهم به وعانقه وتصافحا وأمسكه بيده وأجلسه الى جانبه وهو يقول : «مرحبا برفيق الصبا أهلا بالقادم . أين كنت ؟ وما طلبتك ؟ وما الذى جئت به ؟» .

قال : «هل يأذن لى الأمير بخلوة ؟» ..

قال : «أجل .. » ثم اشار الى ارباب مجلسه فخرجوا ، وبقى عمرو وزياد ..

فقال زياد : «لى رفيق لا يزال بالباب .. هل يأمر الأمير بإدخاله ؟» ، فنادى وردان ليدخل بمرقص .

فقال عمرو : «ومن الرفيق ؟ » ، قال : «رسول من رسل القبط ، وسأشرح لك حاله يامولاى» ..

قال : «قل يا زياد .. انى والله أنست بك وسررت بلقائك بعد طول الفراق ، ولكننى آسف لبقائك على جاهليتك وقد من الله على خلقه بالاسلام ، وهو الدين الحق» ...

قال زياد : «لست جاهليا ولكنى من أهل الكتاب» .

قال : وأى كتاب ؟ » ، قال : «النصرانية» .

قال : «ان النصارى أهل كتاب حقا وقد اوصانا بهم النبى صلى الله عليه وسلم خيرا . قص علينا خبرك يا زياد .. انى والله مشتاق

لمعرفة حالك وما كان من أمرك بعد أن فارقتنا بالاسكندرية ، ألا يزال ذلك القسيس على قيد الحياة ؟» ..

فقص عليه حكايته من أولها الى آخرها حتى وصل الى الكتاب الذى يحمله ، فأخرجه من جيبه ودفعه إليه .. فإذا هو مكتوب بالقبطية .

فقال عمرو : «هل أدعو المترجم ليقرأه لنا» ..

قال : «لا .. بل أنا أترجمه» ..

قال « وهل تعلمت لغتهم ؟» ، قال : «نعم يا مولاى» ..

قال : «اقرأه » .. فترجم الكتاب واذا فيه :

«من المقوقس حاكم مصر الى الأمير عمرو بن العاص قائد جند العرب .. سلام ..

«أما بعد ، فإننا معشر الاقباط قد علمنا بمجيئكم الى بلادنا ، وبلغنا ما أوتيتم من النصر فى بلاد الشام وغيرها .. وعلمنا ما قدر الله لكم من الغلبة على جماعة الروم حيث حللتم ، وما ذلك إلا لما احبوا من دنياهم وما أحببتم من آخرتكم . وقد كان نبيكم بعث الينا منذ بضع عشرة سنة يدعونا الى الاسلام وأن نسلم اليه البلاد ، وهذا كتابه مرسل مع حامل هذا الكتاب لتقرأوه .. فأجبناه بأن ذلك ليس فى طاقتنا لأننا محكومون ، وأن الأمر راجع الى ملكنا هرقل .. وأما وقد رأينا ما عزكم الله به من النصر وقد جئتم هذه البلاد تريدون فتحها ، فقد بعثت اليكم هذا الكتاب سرا لأعلمكم اننا نحن الأقباط لسنا اعداءكم ولا نريد محاربتكم .. وانما اعداؤكم الروم وجندهم ، فإذا قدر لكم النصر ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، اذكروا اننا فى ذمتكم فأوصوا رجالكم ألا يتعمدوا بيوت الله وأهلها لا يقومون بحرب .. ولو كان الأمر بيدنا ما رميناكم بنبل ، ولا جردنا عليكم سيفا ، وجماعة القبط باقون على قولى هذا الى ان يقضى الله بما يشاء» ..

كتبه

المقوقس حنا بن قرقب حاكم مصر» .

وكان زياد يقرأ وعمرو مصغ اليه ينظر الي الارض ويمشط لحيته بإصبعه . فلما أتم قراءة الكتاب رفع عمرو رأسه وقال : «وأين كتاب نبينا صلى الله عليه وسلم » فمد زياد يده واخرج صندوقاً صغيراً من العاج ففتحه واستخرج الكتاب منه، واذا هو من جلد.. فتناوله عمرو ونشره وتأمل موضع الختم ، فاذا هو بثلاثة اسطر على هذه الكيفية :

محمد

رسول

الله

فعلم انه ختم النبي ونظر الى الخط فإذا هو الإمام على بن أبي طالب.. وهو اول من تولى الكتابة فى الإسلام وكان كاتب النبي. وتولى الكتابة وغيره ايضا وكان عمروا بن العاص فى جملتهم ، ولذلك فإنه كان يعرف خطوطهم ، فتحقق انه كتاب النبى فاستأنس به فقبله بكل احترام وجعله على رأسه ثم قرأه فإذا فيه ..

بسم الله الرحمن الرحيم

«من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم مصر.. أما بعد فإن الله ارسلنى رسولا وانزل على كتابا قرآنا مبينا، وامرنى بالانذار والاعذار ، ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بدينى ويدخل الناس فيه. وقد دعوتك الى الإقرار بوحدانية الله تعالى، فإن انت فعلت سعدت وان أبيت شقيت.. والسلام» ..

فقال : «صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما ما يلتمسه المقوقس من رعاية طائفته وحماية الأديرة والرهبان، فذلك مما لا نحتاج فيه الى توصية لأننا اوصينا به من قبل .. فقد حدثنى امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم فيكم صهرا وذمة» ، وقد اوصانا الله خيرا بالرهبان والقسيسين إذ قال فى كتابه العزيز : «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون» ، ومن وصايا ابى بكر رضى الله عنه قوله يوصى المسلمين وقد ساروا

للجهاد : «وستمرون على قوم فى الصوامع رهبان فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم» ، فليطمئن القبط.. انهم فى ذمتنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وانما جئنا لمحاربة الروم فإذا منعونا حصونهم وأبوا الإسلام او الجزية وضعنا فيهم السيف حتى يقضى الله مايشاء وهو خير الحاكمين ، فإن الرجل منا ينتظر شهادته فإذا نالها أقام فى النعيم وهو خير له وأبقى.. وسأكتب الى المقوقس كتابا فى ذلك» .

الإسلام

فقال زياد : «إنى لأعجب لحال الانسان وتقلبات الزمان يا عمرو، ألا تذكر يوم كنا فى الجاهلية لا نعرف الدين.. انى أذكر أياما كنا نعظم فيها أصنام الكعبة ونستخير «هبل» الأكبر ونذبح الذبائح وعيوننا مغمضة من جهلنا» ، فتنهد عمرو وقال: «إن الجاهلية عمى .. وانى لأتأسف على أيام مرت بى قبل الإسلام، وأشعر بعظم ما ربحت بالهداية التى أهديت وأود لكل أمرىء مثل ما كسبت» ..

فقال زياد : «وكيف كان إسلامك ؟»

قال: «أما اسلامى فجاء متأخراً .. وقد كنت من أعداء النبى صلى الله عليه وسلم .. فإنه لما قام يدعو الناس الى التوحيد اضطهدته قريش وشددوا النكير عليه حتى اضطر أصحابه أن يهاجروا إلى النجاشى ملك الحبشة فأمنهم، ثم أرسلتنى قريش أنا ورفيقا لى بهدية الى النجاشى ليسلم المهاجرين الينا فأبى .. وكان عونا لهم علينا، فعظم عندى أمر صاحب الدعوة ووقعت فى نفسى رهبة منه، ولكنى بقيت على دين الجاهلية الى السنة الثامنة للهجرة، وأنا فى أثناء ذلك أفكر فى أمره صلى الله عليه وسلم، فوجدت أعماله ناطقة بصدق دعواه .. فاجتمعت يوما بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة – وهما لم يسلما بعد – فقلت لخالد: «أين يا أبا سليمان؟» قال : «والله لقد استقام الميسم! .. إن الرجل لنبى، أذهب والله، فحتى متى ؟» فقلت: «ما جئت الا للإسلام .. فقدمنا على النبى صلى الله عليه وسلم فتقدم خالد فأسلم ، ثم تقدمت أنا . وكانت أول مرة لقيته وجها لوجه فملأتنى الرهبة لمنظره وما جمع الله فيه من

المحاسن» ، وكان عمرو يكلم زيادا وعواطفه تتكلم معه وقلبه يتهلل فرحا، ثم قال: «وأخذت من ذلك الحين فى الجهاد فى سبيل الله .. وآخر امر فعلته فتح بيت المقدس وأتيت منها إلى مصر كما علمت، وترانا لا نمر ببلد إلا فتحناه عنوة او صلحا ، وكل ذلك ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأن الواحد منا يقاتل العدو رغبة فى الآخرة ويرى الشهادة خيرا له من الذل بل هى خير من الحياة الدنيا لأن الدنيا دار فناء والآخرة دار قرار، فقال زياد: «لا عجب يا عمروا اذا انتصرتم فى حروبكم وقد أخلصتم النية فى الجهاد ، وأما جماعة الروم فإنما همهم التفاضل فيما بينهم ..وفى قيام بعضهم على بعض ما يحول بينهم وبين النصر، وكأنى بدولتهم قد دالت وشمسها قد مالت» ..

وكان مرقص فى أثناء ذلك صامتا لا يفهم ما دار بينهما ..

ولكنه كان معجبا بملامح عمرو وما يلوح فى وجهه من البسالة وما ينبعث من عينيه من اشعة الذكاء. وكان يود الحديث فيما جاء من أجله لأنه خشى ان يصل رسول يوقنا الى ارمانوسة فتنطلى الحيلة عليها فيصيبها شر.. على أنه لم يكن يجسر على الدخول فى الحديث من تلقاء نفسه ..

ثم التفت عمرو الى زياد قائلا : «ومن هو صاحبك يازياد ؟» .

قال : «هو من قبط مصر أيها الأمير من جند المقوقس .. وقد جاء ليقص عليك حكايته ويسألك أمرا لا يتعلق بالحرب .. ولكننا قد أطلنا الحديث الآن وأنت قادم من سفر تحتاج إلى الراحة فلا نثقل عليك اكثر من ذلك .. » .

قال : «إن التعب لا يقعدنا عن حاجات الناس، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم إنما ارسل رحمة للعالمين » ..

فقال زياد وقد شعر انه اطال الحديث : «بارك الله فيك ايها الامير، لازلت ملاذاً للطالبين.. أما أمر صاحبنا فليس مما يسرع إليه، وإذا أذن مولاى ان نعود اليه فى الغد فعلنا . وأما الآن فإننا نستأذنه فى الانصراف» ، قال ذلك وهم بالوقوف فوقف مرقص وهو لم يفهم

ما قيل ، فوقف عمرو وقد اجاب زيادا الى قوله، ونادى وردان فحضر، فقال له عمر : «اليك بهذين الرجلين فإنهما ضيفان علينا وقد شعرت باستيحاش هذا القبطى لحديثنا لأنه لا يفهمه، فعليك بمحادثته بلغته الليلة حتى لا يقول انه رأى فى ضيافتنا وحشة » ..

فقال وردان : «لبيك» .. واصطحب الرجلين وخرج بهما ومرقس لم يفهم ما قيل، فأفهمه زياد مادار بشأنه وهم خارجون . فأسف لتأجيل الأمر ، ولكنه لم ير مندوحة عن الاذعان .

فسار بهما وردان الى خيمته وانزلهما على الرحب والسعة، وقضوا بعض ذلك الليل فى الحديث عن الاسلام واخبار الصحابة والفتوحات ، وماعرف به الخليفة عمر بن الخطاب من المناقب الحسان ، وما يروى عن النبى من الاحاديث فسحر زياد ومرقس بما سمعاه وقالا معا : «والله ان من كانت هذه مناقبهم وخلالهم لاغرو اذا دوخوا البلاد وفتحوا الامصار» .. وقد اعجبهما بنوع خاص ما سمعاه عن عمر بن الخطاب .

وحكى لهما وردان حكايات أخرى، وكان يخاطبهما بالقبطية .. أما مرقس فود أن يكون المقوقس معهم ليرى امر العرب وحالهم ويزداد كرها للروم ورغبة فى التخلص منهم ، ثم رأى أن يستطلع شيئا من وردان عن يوقنا وعلاقته بقسطنطين او المسلمين ، فقال : « كيف ترون يوقنا؟» ..

فالتفت وردان الى مرقص وهز رأسه قائلا : « انه يدعى الإسلام والقيام بنصرته وقد وثق به اميرنا.. ولكننى والله لا أظن به خيرا ولا اعتقد صدق ما يدعى ، وقد جاء امام جيشنا ليحاربكم ونحن لا نبالى اذا كان معنا أو علينا .. فإن سيوفنا تنصرنا حيثما حللنا» ..

قال مرقس : «وهل يحبه قسطنطين بن هرقل ؟» ..

قال وردان : «وكيف يحبه ؟!، انه لو استطاع قتله ما تأخر لحظة عن اذاقته الموت الزؤام لأنه يحارب قومه» ..

ففهم مرقس انه جاء بدسيسة للإيقاع بسيدته، فصبر نفسه ليرى ماذا يكون من أمره ..

جند العرب

وباتوا تلك الليلة ، واستيقظوا فى الصباح على أصوات المؤذنين، والمسلمون قيام للصلاة ، واذا بيوقنا قد جاء الى خيمة عمرو وخلا به برهة ووردان معهما، ثم خرج وردان فنادى بالأمراء ليحضروا فدخلوا خيمة عمرو ولبثوا يتفاوضون . وجاء فى أثناء ذلك وردان وأخبر زيادا ومرقس أن الأمير قد عزم على المسير الى الفرما فى ذلك اليوم.

فتكدر مرقس لأنه كان يود مخاطبة عمرو فى أمر يوقنا حتى إذا كان قد جاء الى سيدته بدسيسة يدبر وسيلة لإنقاذها بواسطة عمرو، فبهت برهة، ثم قال: «وما الذى حمله على سرعة المسير الى الفرما، وقد كان فى ظننا انه يستريح بضعة أيام قبل مهاجمتنا؟».

قال: «ألم تر يوقنا قد اختلى به فى هذا الصباح، فالظاهر انه علم من أمر الفرما ما يوجب الإسراع الى فتحها. ولعل جواسيسه أخبروه ان المقوقس مرسل نجدة اليها، فأرادوا معالجتها قبل وصول المدد».

فتحير مرقس حتى ظهر الارتباك على وجهه.. فأدرك زياد ذلك عليه، فقال له: «لا ترتبك لعلنا نخاطبه بشأن ما تريد غدا بعد وصولنا الى ظاهر المدينة، فإن الجند يصلون الى الفرما عند الظهيرة.. ولابد قبل الهجوم من الاستعداد».

فصبر مرقس نفسه ثم تركهما وردان وذهب الى خيمة عمرو للتأهب، فخلا زياد بمرقس فقال له: «مالى أراك مرتبكا» ؟.

قال: «إنى والله فى وجل على سيدتى بعد أن علمت أن يوقنا هذا قد أراد الغدر بها، وانه ليس مرسلا من قسطنطين.. فلعله يريد اختطافها لنفسه وقد أرسل رسله لهذه الغاية».

وبينما هما فى ذلك، شاهدا هجاناً قادماً من بلبيس.. فحقق مرقس النظر فيه فإذا هو بروفس رسول يوقنا فقال: «هذا هو يازياد رسول يوقنا قد عاد من بلبيس.. هلم بنا نسأله عما كان من نتيجة مخابراته» . فأسرعا اليه خارج المعسكر حتى لقياه، فناداه مرقس وقد أظهر ارتياحه لمشاهدته، وسأله عن جواب ارمانوسة، فتبسم قائلاً:

«انها بخير وقد سرت سروراً عظيماً بما أخبرتها به، وأخذت فى التأهب واعداد ما يلزم للمسير.. ولكنها قالت لى أن أستعجلك فى الرجوع اليها، وقد دفعت الىّ هدية نفيسة فى مقابل بشارتى لها».

قال ذلك وساق هجينه الى خيمة يوقنا. أما مرقس فقال لزياد: «ها قد انطلت الحيلة على سيدتى، ولا أدرى ماذا أفعل، وقد طلبت الإسراع فى ذهابى اليها. ولكننى لا أرى أن أذهب قبل أن أستوثق من عمرو وأحصل على وعده فى الدفاع عنها.. فما رأيك» ؟.

قال: «رأيى أن تنتظر الى ظهر اليوم بعد وصول المعسكر الى ظاهر الفرما، وأنا أبذل الجهد فى مقابلة عمرو لإجراء المستطاع.. فلنقف الآن على هذه الأكمة لنشاهد نظام الجند العربى وكيفية تأهبه للحرب».

وفيما هما ينظران الى تنظيم الجند، إذا بعمرو قد جاء على فرسه ووردان راكب الى جانبه يحمل العلم، وعمرو يخترق الجند ينتقل من فرقة الى أخرى، فقال زياد: «تعال نقترب من الجند لنسمع ماذا يقول عمرو فى طوافه».

فنزلا حتى دنوا من المعسكر، فإذا بعمرو يطوف بين الرجال يرتب صفوفهم ويحثهم على الثبات.. فيذكرهم بما نالوه من النصر فى الشام وبيت المقدس فيقول: «ياأهل الإسلام والايمان، ياحملة القرآن، ياأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.. اننا ذاهبون لمقابلة الروم فاصبروا صبر الرجال، وثبتوا أقدامكم ولا تزايلوا صفوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطوا خطوة إلا وأنتم تذكرون الله، ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم واشترعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت إلا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم».

ثم تحول الى مكان آخر من الجند، وقال: «معاشر العرب انكم فى بلاد العدو بعيدون عن الأوطان، ولا ينجيكم إلا الطعن والثبات فى الحرب.. فإذا صبرتم وجاهدتم ملكتم الرقاب، وان وليتم ليس وراءكم الا المفاوز والبرارى وعين الله ترقبكم».

كل ذلك والناس يوحدون ويهللون ويكبرون.. ثم انتظمت الحملة

ومشى الجند. فجعل مرقس ينظر الى خيام يوقنا فإذا هى فى مكانها. ولم يخرج يوقنا مع الجند ولا خرج أحد من رجاله.

فخاف أن يكون فى نيته الذهاب الى بلبيس وتنفيذ مكيدته على حين غفلة، فجعل يفكر فى أمره، ويتردد بين أن يسير إلى بلبيس فيطلع سيدته على ما علمه من أمر يوقنا، أو أن ينتظر لقاء عمرو ومعاهدته على حمايتها. وبعد التفكير برهة التفت زياد اليه قائلاً: «مالى أراك حائراً فى أمرك؟»، قال: «انى خائف من يوقنا ومكيدته، وأخشى أن يسير الى بلبيس وينفذ مكيدته على غرة» فقال: «إذا كنت ترى أن تذهب الآن فافعل.. وأنا أتكفل لك بمقابلة عمرو وأخذ العهد منه وابعثه اليك إما كتابة أو شفاها».

فارتاح مرقس الى هذا الرأى وقال: «بورك فيك يازياد.. ولكننى أتيت ماشيا، فإذا عدت ماشيا أخاف الابطاء، وربما سبقنى يوقنا اليها على خيله فلا تكون ثمة فائدة من ذهابى».

فقال: «أما الخيل فلا يجود العرب بها.. ولكننا ربما استطعنا الحصول على جمل، والجمل يكون أحياناً أسرع من الفرس، فهل تعودت ركوب الجمال؟».

قال: «لا والله لم أركبها قط، ولكنى أركبها ركوب المضطر».

ارمانوسة فى بلبيس

ولنرجع الى أرمانوسة وما كان من أمرها.. فإنها لبثت فى بلبيس بعد رحيل مرقس تنتظر عودته بفارغ الصبر لتعلم حقيقة خبر قسطنطين، فمضى يوم وثان وهى على مثل الجمر لا يهنأ لها طعام ولا شراب. فلما كان مساء اليوم الثانى بعثت الى بربارة فجاءتها مهرولة، فقالت لها: «ألم يكن من الحكمة يابربارة أن أبعث بك الى أركاديوس قبلا لتخبريه بما نحن فيه، فلعله إذا علم أننا متفقان قلباً وقالباً أسرع الى انقاذى من قسطنطين. وأخشى إذا أبطأت عليه بالجواب أن يظن بى تغييراً فيتغير، أو يظن بى سوءاً فينتقم.. فما رأيك».

فقالت بربارة: «لا أظنه يستبطئنا إذا تأخر جوابنا أسبوعاً لعلمه

بصعوبة المراسلات، وأظن انه من الأفضل انتظار عودة مرقس.. لأننا إذا تحققنا من قتل قسطنطين أغنانا ذلك عن مشقات جسيمة ويكون فيه القول الفصل. وإذا تحققنا بقاءه على قيد الحياة وإصراره على عزمه، عمدنا الى وسيلة للنجاة. وأما الآن فنحن بين بين.. وعلى كل فالرأى لسيدتى، مرينى فأفعل ما تريدين».

فصمتت أرمانوسة مدة، وكانت متكئة على سريرها، فاستلقت وتنفست الصعداء قائلة: «لا أرانى قادرة على الفصل فى الأمر.. فأشيرى علىّ.. انى أطوع لك من بنانك».

فقالت بربارة: «ننتظر الى الغد، فإذا لم يأتنا مرقس دبرنا الأمر.. والله يلهمنا بما فيه خيرنا ان شاء الله».

وفى الصباح جاء حاكم بلبيس يطلب مقابلة أرمانوسة فى غرفتها فأذنت له، وقد دهشت لمجيئه، وهو قلما طلب مقابلتها..

فلما دخل حياها بكل احترام.. فردت التحية، وهى لفرط ما قاسته من الوجد والهيام قد هزل جسمها وامتقع لونها. ونظرت الى الحاكم فإذا هو ممتقع اللون أيضاً، فازداد قلقها فقالت: «ما وراءك أيها الحاكم؟».

قال: «قد أتتنا الجواسيس ياسيدتى ينبئون بدخول العرب حدود مصر، وأن فرقا منهم وصلت الى الفرما، فهل أرسل الى سيدى المقوقس بذلك، فانه أوصانى عند عودته هذه المرة أن أستشيرك فى مثل هذه الأمور لما يعهده فيك من الحكمة والدراية».

فلما سمعت ارمانوسة ذلك خفق قلبها ولم تعلم بماذا تجيبه، وبعد التفكير برهة قالت: «لابد من ابلاغه الخبر حالاً والاستنجاد به، فإن العرب لا يلبثون أن يصلوا الينا. ولا أظن حامية بلبيس تكفى لدفعهم». فقال: «إذا أمرت مولاتى أرسلت فى الحال من يطلب المدد». فقالت: «لابد من ذلك، فافعل». فخرج مهرولاً..

ولما خلت بربارة بسيدتها، قالت لها: «ربما ذعرت ياسيدتى لهذا الخبر، ولكنى أحسبه بابا للفرج». قالت: «وكيف ذلك يابربارة؟».

قالت: «لأن سيدى المقوقس فى الحصن الآن، وإذا وصله الخبر

أبلغه الى الاعيرج فيعلم به سيدى أركاديوس.. فإذا كان يحب أرمانوسة حقيقــة جـاء بنفسه مدداً لحامية بلبيس، وهذا ما نتمناه».

ولما لحظت بربارة عظم ارتباك سيدتها وقلقها، قالت لها: «هلم بنا يامولاتى ننزل الى الحديقة».

وكانت الحديقة مشرفة على سهل خارج البلدة، فلاحت من بربارة التفاتة، فإذا بفارس قادم من بعد وعليه لباس مرقس فظنته هو، فالتفتت الى سيدتها بلهفة وقالت: «هذا هو مرقس ياسيدتى.. فلعله جاءنا بخبر سار».

فالتفتت أرمانوسة الى القادم قائلة: «ولكنى أراه راكبا جملا من جمال العرب، فهل ذهب راكبا».

ولم تتما الحديث حتى وصل الهجان الى سور المدينة، فتحول عن الجمل الى شجرة.. فخرج بعض حامية بلبيس لاستقباله وسؤاله عن مراده. ثم جاء أحدهم يقول: «ان القادم رسول من قسطنطين بن هرقل إلى المقوقس». وتقدم الى أرمانوسة يسألها إذا كانت تريد مقابلته.

فلما سمعت أرمانوسة ذكر قسطنطين أجفلت وانقبضت نفسها وقالت: «لا.. لا أريد مقابلته». فهمت بربارة الى باب الحديقة وأشارت الى الحراس أن يأذنوا له بالدخول، فدخل فإذا هو جندى من جنود الروم بلباس جند مصر، وهو لباس مرقس بعينه.. فقلقت بربارة على مرقس، وقالت للرجل: «من أنت؟».

قال: «رسول من مولاى يوقنا صاحب جند حلب، أرسلنى فى مهمة الى المقوقس من الملك قسطنطين».

قالت: «وأين صاحب هذه الثياب؟.. ألعلك لقيت رسولنا؟».

قال: «نعم ياسيدتى وهو بخير.. وقد فارقته قرب معسكرنا، وهو يعتزم الذهاب الى الفرما فى مهمة من السيدة أرمانوسة، وأوصانى أن أطمئنكم عليه».

فقالت: «وأين كتاب الملك قسطنطين؟»، فمد يده الى جعبة

معلقة فى كتفه، وأخرج حقاً من الفضة وقدمه الى بربارة، فتناولته، ثم تركته ودخلت بسيدتها الى غرفتها، وهى لعظم كدرها لا تلوى على شيء..

فلما دخلتا الغرفة، فتحت بربارة الحق ففاحت منه رائحة العطر فأخرجت الكتاب، فإذا هو على ورق ناعم حسن الصنعة.. فناولته الى أرمانوسة لتقرأه لأنها لم تكن تعرف اللاتينية.

فأخذت أرمانوسة الكتاب ويداها ترتجفان ونظرت الى مكان الإمضاء فرأت امضاء قسطنطين باسمه، فاختلج قلبها واغرورقت عيناها بالدموع وصاحت: «تباً له.. ألا يزال على قيد الحياة؟».

فقالت لها بربارة: «اقرئيه ياسيدتى لنفهم ما فيه فلعل فيه خيراً.. ولو كنت أحسن القراءة لما كلفتك بقراءته».

فأخذت أرمانوسة تقرأه، فإذا فيه ما ترجمته:

«من قسطنطين بن هرقل ملك الروم الى المحترم المقوقس والى مصر..

باسم الآب والابن والروح القدس.

أما بعد، فإنى قد عزمت على الشخوص الى القسطنطينية بعون الله، فبعثت محبنا البطريرك يوقنا حاكم حلب اليكم لكى تعتمدوا عليه فى إرسال خطيبتنا أرمانوسة ليأتى بها الينا، ونحن ننتظر وصوله عند سواحل دمياط. وقد عهدنا اليه بهذه المهمة لاعتقادنا فيه الاخلاص.. فلا تترددوا فى تسليمه أرمانوسة والسلام».

(الختم)

فلما قرأته أرمانوسة خارت قواها وألقت بنفسها على السرير واستغرقت فى البكاء، وهى تقول: «لا.. لن أذهب معه ولن أخرج من هذه الغرفة قبل أن تخرج روحى من جسدى».

فجعلت بربارة تخفف عنها وتقول لها: «لا تجزعى ياسيدتى.. انك لن تذهبى بإذن الله إلا مع سيدى أركاديوس، ولكن يجب علينا تدبير الأمر بالحيلة.. فبماذا تجيبه الآن؟».

قالت أرمانوسة وقد أظلمت الدنيا فى عينيها: «لا تسألينى أمراً

فإني لا أفهم ما تقولين ولا أعلم بماذا أجيب، ولكنني أقول لك انى لا أريد الخروج من هذا المكان أبداً.. وافعلى ما يبدو لك».

فتركتها فى الغرفة وخرجت وبعثت الى حاكم المدينة، فجاء مسرعاً .. فلاقته بربارة وانفردت به وأطلعته على كتاب قسطنطين، وقالت: «ان هذا الكتاب باسم المقوقس ونحن لا يمكننا أن نفعل شيئاً الا بأمره، فألتمس منك أن تبعث اليه أحد رجالك بهذا الكتاب حتى يأتينا بالجواب».

فخرج وعاد بشاب كان يثق به كل الثقة وقال: «هذا هو الرسول.. فأوصيه بما تريدين» فنادت الشاب، وقالت له: «امكث هنا قليلاً حتى أعود اليك». وخرجت الى الحديقة، وبعثت الى الرسول القادم من يوقنا فدخل، فقالت: «ان سيدتى أرمانوسة مسرورة من هذه البشارة، فأين هو سيدك يوقنا الآن؟».

قال: هو عند الفرما برجاله ينتظر عودتى حتى يأتى ويذهب بالسيدة ارمانوسة فى الحال، لأن الوقت قصير وقد أعدت لها كل معدات الاحتفال والزينة».

فقالت: «هل جاء بجند كبير؟».

قال: «نعم.. انه جاء بخمسمائة من خاصة رجال سيدى قسطنطين حراسا للسيدة أرمانوسة فى مسيرها».

قالت: «بارك الله فيك وفيه.. اذهب اليه وأخبره ان السيدة أرمانوسة تهديه السلام وتشكر حسن صنيعه، وانها تستعد للمسير معه حالما يأتيها الجواب من سيدى المقوقس»، ومدت يدها وناولته مبلغاً من المال، وقالت: «وستنال بقية المكافأة فيما بعد».

فودعها وعاد الى هجينه فركبه.. وسار يطوى البيداء..

أما هى فدخلت على سيدتها، فإذا هى لا تزال مستلقية على السرير وعيناها تذرفان الدموع.. فدنت منها وقبلتها مبتسمة وقالت: «تجلدى ياسيدتى وفكرى فيما سأقوله، فإن الأمر يحتاج الى الحزم، وثقى جيداً ان قسطنطين لن ينال منك شعرة بهمة سيدى أركاديوس، ولكن يجب علينا أن نخبر أركاديوس بما تم حتى يأتى

لنجدتك . ولاشك عندى انه سيسرع الينا وقد يسهل مجيئه مع النجدة التى سيرسها والده الى بلبيس.. فكيف نحيطه علما بذلك؟».

قالت: «قلت لك يابربارة انى لا أملك حواسى فافعلى ما تشائين، ولكننى أخشى سوء العاقبة».

فقالت: «أين هو ختم سيدى اركاديوس؟». قالت: «هو فى جيبى».

فاستخرجته وجاءت بقطعة من ورق البردى وختمتها به، وكتبت اسم أرمانوسة بالقبطية الى جانب الختم، وأحاطت الاسم بدائرة سوداء، ولفت الورقة وجعلتها فى حق صغير.. وخرجت بالحقين إلى الرسول الذى جاء به حاكم المدينة، وخلت به ودفعت اليه قطعة من النقود، وقالت: «هذه هدية من السيدة أرمانوسة».. فأثنى عليها.

فقالت: «خذ هذين الحقين.. فادفع هذا الى سيدك المقوقس حيثما وجدته، وهذا ادفعه الى أركاديوس بن الاعيرج يدا بيد. أفهمت ما أقوله لك؟ واحذرك أن يراك أحد فإن سيدتى ستوصى والدها بأن يزيد عطاءك إذا قمت بما أقوله لك». فقبل الحقين وخبأهما فى جيبه، وخرج الى جواده فركبه، وسار قاصداً حصن بابل فرحا بالهدية.

وعادت بربارة الى سيدتها وجعلت تطمئن قلبها وتخفف عنها، فقالت أرمانوسة: «لا شيء يعزينى يابربارة.. فإن يوقنا اللعين سيأتينا بعد قليل، فبماذا نجيبه؟».

قالت: «أراك لا تنظرين الى الأحداث الا من جانبها المظلم.. خلى عنك الظنون لأننا لا ندرى ما يكنه القدر لنا، وأرانى شديدة الأمل فى سيدى أركاديوس.. فإنه سيدفع عنك كل غائلة بسيفه».

ومضى عليهما يومان فى انتظار القضاء والقدر، وفى صباح اليوم الثالث أفاقت أرمانوسة على صوت الناس وضوضائهم..

فأرسلت بربارة تستطلع الخبر فعادت قائلة: «إن أهل بلبيس فى قلق من أمر العرب لأنهم هاجموا الفرما، وجاء من أهلها نفر هاربين من ساحة الحرب.. وقد استقدم الحاكم بعضهم الى منزله،

يستطلعهم أخبار العرب سراً، لأنهم شهدوا محاربتهم واختبروا قوتهم».

فارتكبت أرمانوسة، وقالت: «هذه مصيبة أخرى يابربارة، فقد أصبحت بين أربعة عوامل تتسابق الى شقائى، أولها وأشدها وطأة علىّ ذلك الرجل الذى لا أحبه ورسوله الذى ربما وصلنا غدا وقد جاء ليحملنى الى جهنم أعوذ بالله. وثانيها والدى الذى وافقه على ذلك، وهو مساعد له على شقائى . وثالثها هؤلاء العرب الذين جاءونا محاربين وهم أشداء على ما يظهر وربما ملكوا رقابنا عنوة. ورابعها قلبى هذا الذى تعلق بأركاديوس وعصينى فى هواه.. وأنا بعيدة عنه لا أرجو لقاءه، وقد كان لى من قبل بقية من أمل.. أما الآن فأرانى يئست من حبه». قالت ذلك وشرقت بدموعها..

فقالت بربارة وقد انفطر قلبها: «دعى عنك الأوهام وتجلدى، فقد قلت لك ألقى حملك علىّ فإنى ناصرتك بإذن الله. وأضمن لك ان قسطنطين لن ينال منك شعرة.. ولكن اصبرى، وانتظرى حتى أذهب الى الحاكم وأسمع كلام الهاربين لعلنا نقف منهم على خبر».

فتركتها فى الغرفة وذهبت توا الى منزل الحاكم بجوار القصر.. فدخلت، وكان الحراس يعرفونها فلم يمنعوها، فلما رآها وقف لها واستقبلها وأراد أن يدخل بها غرفة الاستقبال، فقالت له: «لا حاجة الى ذلك فإنى جئت لأسمع كلام الهاربين» فدخل بها الى غرفة فيها رجل عرفت من لباسه انه من ضباط الجند ولكنه ليس رومانيا، وانما أصله من جند انطاكية..

سأله الحاكم: «أخبرنا بما رأيته»..

فقال وقد تنفس الصعداء: «انى لا أصدق ياسيدى اننى ما أزال على قيد الحياة لفرط ما قاسيته من أنواع المخاطرة، فإن هؤلاء العرب أشداء أقوياء ولا أظن ان جندنا يقوون على حربهم».

فابتدره الحاكم قائلاً: «اخفض صوتك لئلا يسمعك أحد فيقع الرعب فى قلوب الناس.. واشرح لنا حالك».

موقعة الفرما

فقال: «علمنا منذ ثلاثة أيام بوصول جند العرب الى ضواحى الفرما بعدتهم وخيلهم، فأخذنا فى التأهب لمحاربتهم، وكان فى ظننا انهم يمكثون مدة قبل منازلتنا التماسا للراحة من وعثاء السفر، ولكننا لم نكد نتم التأهب حتى رأينا غبارهم يتصاعد وجموعهم تزحف نحو المدينة. ثم انكشف ذلك الغبار عن جيش جرار تتقدمه الأعلام والفرسان ومازالوا يتقدمون حتى عسكروا أمام المدينة. ننتظر ما يظهر منهم، وكنت أنا فى حاشية حاكم الفرما نتشاور فى أمرهم، وبعد الظهيرة بقليل رأينا واحدا منهم يتقدم نحو الأسوار حاملا علما أبيض اشارة الى انه رسول فلم نتعرض له، فلما وصل السور أشار بيده أن معه كتاباً يريد تسليمه الى كبيرنا. فأمرنى الحاكم فنزلت الى باب السور ففتحته، وأردت تناول الكتاب منه فأعرض عنى كأنه لا يريد أن يسلمنى اياه، وفهمت انه يريد تسليمه للحاكم يدا بيد. فدخل ودفع الى الحاكم خطابا مكتوبا على رق من جلد الشياه – وليس من البابيروس مثل رقوقنا – فتناوله الترجمان وفسره فإذا هو من أمير العرب يطلب الينا التسليم حالا أو نعتنق ديانتهم أو ندفع الجزية أو يحاربوننا. فعظم ذلك علينا.. فقال له الحاكم: «ليس عندنا إلا الحرب، فتحول العربى ويده لا تفارق قبضة حسامه وعيناه تراعيان حركاتنا وسكناتنا، كأنه خشى أن نغدر به. ونزل وعاد الى معسكره فصعدت الى مرمى النبال على السور ونظرت الى معسكر العرب، فإذا هم قد وقفوا صفوفا والفرسان متفرقون بينهم، فعلمت أن هؤلاء الفرسان انما هم قوادهم. ولم تمض مدة يسيرة حتى انبرى منهم فارس مدجج بالسلاح وعليه درع يمانية، وكنت قد شاهدت مثلها عند بعض قوادنا يوم كنت فى انطاكية، وأسرع بجواده حتى دنا من السور مشهرا حسامه.. فسأله الترجمان من أعلى السور عما يريد، فقال: إذا كان لابد لكم من الحرب فاخرجوا الينا أو ليخرج منكم فارس تعتمدون عليه لنبارزه، فإما أن تكون الغلبة لكم إذا فاز أو لنا إذا فزنا. فالتفت الحاكم الىّ وقال: «ما الرأى»؟.. فقلت له: «ان المبارزة

حقن للدماء».. فقال: «ومن يخرج منكم الى هذا الفارس؟»، فانتصب أحد الضباط الكبار وكان ممن حنكته الأيام ومارس الحروب. وأخذ الفارسان يتجاولان ويتبارزان، حتى أمسى المساء ولم ينتصر أحد منهما على رفيقه، فافترقا على أن يعودا فى الصباح. فلما رجع فارسنا سألناه عما لاقاه من ذلك العربى، فاعترف انه لو لم يدركه الظلام لذهب فريسة له.. قال ذلك سرا فيما بيننا وكان يظهر خلافه لدى الآخرين، فاجتمعنا تلك الليلة وتشاورنا فى أمر أولئك العرب، فأجمع الرأى على أن نأخذهم بالحيلة.. فنخرج اليهم فى الصباح مظهرين اننا نقف صفوفا لمشاهدة المتبارزين، ونجعل فرقة من جندنا فى كمين على يسار الجند عن بعد، ثم نشغلهم فى حربنا ويدور الكمين من ورائهم ونهاجمهم من سائر الجهات فنضايقهم.

وكنت أنا فى جملة من سار للكمين وجعلنا علامة الهجوم دق الأجراس، ونزل المتبارزان، وبعد هنيهة سمعنا دق الأجراس فهجمنا على العرب من الخلف.. وكان باقى جندنا قد هاجموهم من الأمام، وعلا الصياح من الجانبين وحمى الوطيس. أما نحن فهجمنا عليهم من الوراء، فما شعرنا الا وقد أغار علينا ساقتهم وفيهم كثير من النساء بالعمد والعصى. وكانت الواحدة منهن تهجم على العشرة والعشرين وفى يدها عصا طويلة تضرب بها ذات اليمين وذات اليسار، فلاقينا من عنف أولئك النساء أضعاف ما لاقيناه من الرجال. وما زلنا فى ذلك الى منتصف النهار حتى خارت قوانا، فلم نعد نستطيع الثبات. ثم رأيت نبلة ساقطة على تكاد تخترق صدرى، فاستقبلتها بيدى فجرحتنى، وكان الترس قد وقع من يدى فخفت على نفسى فلذت بالفرار فى عرض الصحراء حتى بعدت عن المعسكر وفرت معى جماعة كبيرة، فالتفت الى الفرما فإذا بالعرب يتسلقون أسوارها، ولا ريب انهم دخلوها واستولوا عليها، وقد واصلت السير ليلا ونهارا حتى وصلت اليكم، وأنا لا أصدق انى نجوت من الموت».

فلما أتم حديثه امتقع لون الحاكم ووقع الرعب فى قلبه، ولكنه أظهر الاستخفاف وقال: «انكم أخطأتم الحيلة وكان يجب أن

تبارزوهم وجها لوجه، فما هم الا شرذمة قليلة وليس لديهم من العدة والسلاح مثل ما لنا، فإذا جاءوا بلبيس فسوف أذيقنهم العذاب ألوانا». ثم قال للرجل: «احذر أن تطلع أحدا من حامية بلبيس على الحقيقة».

أما بربارة فعادت الى سيدتها وقد سيطر عليها الخوف، فرأتها واقفة الى النافذة، فلم تكد تشعر بدخول بربارة حتى نادتها.. وسألت عن أمرها، فقصت عليها الخبر كما سمعته الى أن قالت: «وهذا ما كنا نخشاه فى أول الأمر، وهو الذى حمل سيدى على مسالمة العرب.. فإنه تنبأ بانتصارهم على الروم حيثما نازلوهم، ولا يبعد أن يكون قد خابرهم سرا وعقد معهم عهدا ألا يؤذوا أحداً من القبط. وعلى كل، فإن الروم لن تقوم لهم قائمة».

فقالت أرمانوسة: «وما الرأى يابربارة؟»، قالت: «الرأى أن نتريث لنرى ما يأتى به القدر. ولابد من أن يأتينا الفرج».

يوقنا وارمانوسة

وفى الصباح خرجت بربارة تتنسم الأخبار لعلها تسمع شيئاً عن مجىء مرقس، فرأت الحاكم سائرا على عجل فسألته عن الخبر فقال: «أما رأيت الغبار المتصاعد فى عرض الأفق»؟ قالت: «لا.. وما ذلك»؟

قال: «أخبرنا الجواسيس بقدوم يوقنا مع رجاله لحمل السيدة أرمانوسة، وقد جئت لأبشرها»..

فقالت: «أشكرك بالنيابة عنها.. وسأبلغها بدلاً عنك».

ثم تركته وصعدت الى نافذة أطلت منها على ضواحى المدينة، فرأت الغبار يتصاعد وقد دنا القادمون.. فهرولت الى سيدتها وأخبرتها، ولكنها مزجت الخبر بأمارات الاطمئنان خوفا عليها. أما هى فلم تعبأ الا بالحقيقة، فلطمت وجهها كأنها وقعت فى مصيبة وبربارة لا تستطيع تخفيف اضطرابها.. ولكنها قالت لها: «مهما يكن من أمر فإننا فى انتظار جواب والدك».

فقطعت أرمانوسة كلامها قائلة: «وما خوفى الا من ذلك. سامح

الله والدى فإنه هو الذى جلب علىّ كل هذه المتاعب».

وفيما هما فى ذلك، سمعتا قارعا يقرع الباب.. فخرجت بربارة لاستقباله، فإذا هو الحاكم يحمل حقا وعلى وجهه أمارات البشر..

فسألته عن أمره فقال: «أن هذا الحق مرسل من البطريرك يوقنا الى السيدة أرمانوسة»، فهمست فى أذنه: «ان سيدتى الآن فى الفراش ولا شك أنها ستقدر لك هذه المهمة، وسأبلغها الرسالة متى أفاقت.. وربما دعوتك لمقابلتها».

وكانت ارمانوسة جالسة على مقعد فى صدر الغرفة وقد أطرقت الى الأرض تنتظر عودة بربارة، فما رأتها داخلة فى يدها ظنتها تحمل كتابا من اركاديوس. فنهضت وهمت بها وتناولت الكتاب منها بلهفة، ولكنها ما لبثت أن فتحته حتى رمت به الى الأرض، وقد تبدلت لهفتها بالانقباض، وقالت: «ما الذى جئت به؟ وما هذا الذى بيدك؟»، قالت: «ألم تقرئى الكتاب ياسيدتى؟»..

قالت: «لم أقرأه ولا أريد أن أقرأه.. لأنه من الذى تكرهه نفسى»..

قالت: «اقرئيه لعل فيه خيراً»، قالت ذلك وتناولت الكتاب ودفعته اليها، فأخذت أرمانوسة فى قراءته فإذا ترجمته:

«باسم الآب والابن والروح القدس..

«من قسطنطين بن الامبراطور هرقل ملك الملوك الى عروسنا أرمانوسة الحبيبة.

وقد أرسلنا اليك مع عزيزنا يوقنا، ووكلت اليه أن يأتى بك الينا، كما كتبت الى حضرة والدك عاملنا على الديار المصرية. ونحن فى انتظارك بمراكبنا عند بحر دمياط.. فأسرعى فى المجىء.. والسلام».

وما أتمت قراءته حتى صاحت بأعلى صوتها: «لا.. لا.. لا أريد أن أذهب اليك، ورمت الكتاب إلى الأرض».

فوقفت بربارة صامتة لا تدرى كيف تسلى سيدتها، وقد ازداد الأمر تعقيداً.. على انها تركتها وذهبت الى الحاكم، وقالت له: «قد أطلعت سيدتى على الكتاب وهى فى انتظار الجواب من سيدى المقوقس، لأنها لا تستطيع أن تتحرك قبل وصول جوابه».

فقال: «إن رسول سيدى المقوقس عاد الآن يحمل كتابا الى يوقنا وآخر لمولاتنا أرمانوسة، فدفع هذا لى، وسار لإيصال كتاب يوقنا اليه»، ومد يده الى مائدة أمامه واستخرج كتابا، فتناولته وقضته فإذا هو مكتوب بالقبطية يحثها والدها فيه على التأهب للمسير مع يوقنا، ويعتذر عن عدم حضوره بنفسه لاشتغاله فى الحصن بإعداد الجند لدفع العرب.

فتغير لون وجهها وخرجت.. فخبأت الكتاب فى مكان ولم تطلع سيدتها عليه، ولكنها لبثت تنتظر عودة ذلك الرسول من عند يوقنا لتسأله عما فعله بالعلامة التى أرسلتها الى أركاديوس.

فخرجت الى الحديقة ، وجعلت تتطاول الى الطريق لعلها تشاهد الرجل قادما فتستطلعه الخبر، فما لبث أن جاء ومعه رسول آخر عرفته من لباسه انه بروفس الذى جاء فى المرة الأولى برسالة من يوقنا، فاستعاذت بالله منه.

فلما وصلا باب الحديقة استأذنها فى الدخول، فأذنت أولا لرسول أركاديوس.. فدخل، فسألته عن كتاب اركاديوس فقال: «وصلت الحصن ياسيدتى مساء فسألت عن القائد اركاديوس فقيل لى انه ذهب فى جماعة من رجاله الى خارج الحصن ليقطعوا الجسر المنصوب بين الحصن وجزيرة الروضة – وهو جسر مصنوع من المراكب يعبرون عليه من الحصن الى الجزيرة – ومثله الجسر الموصل بين الجزيرة والبر الغربى».

قالت: «وماذا فعلت عند ذلك»؟

قال: «سرت الى سيدى المقوقس، فدفعت اليه كتابه فقرأه. وكان فى شاغل بالاستعداد وتقوية الحصون، فكتب الى كتابين، وأوصانى أن أوصل أحدهما الى سيدتى والآخر الى يوقنا، وأمرنى بسرعة الرجوع بهما، فلم أعلم كيف أوصل كتابك الى أركاديوس. وخفت إذا تأخرت هناك وعلم سيدى المقوقس بتأخيرى أن تنكشف حقيقة أمرى، وربما كان فى ذلك ما يغضبك أو يغضب سيدتى أرمانوسة.. فرأيت هناك جنديا كنت أعرفه منذ صباى وهو صديق

لى، فدفعت الكتاب إليه وأوصيته أن يسلمه إلى القائد أركاديوس حالما يعود من مهمته فوعدنى أن يقوم بذلك، وجئت بالرسالتين كما قدمت»..

فقالت: «ومن هو هذا القادم معك؟».

قال: «هو رسول يوقنا إلى سيدتى أرمانوسة.. أرسله يوقنا على أثر تلاوة كتاب سيدى المقوقس».

فعلمت أنه أرسل يطلب ذهابها إليه، وقد انقطع الرجاء.. فاشتد بها الأسف وترقرقت الدموع فى عينيها، ولكنها تجلدت وأرادت أن تتحقق من الخبر فقالت: «ادع الرسول ليدخل إلى هنا».

فدعاه، فلما دخل تحققت أنه الرسول الأول بروفس، فقالت: «ما وراءك؟»، فسلم ودفع إليها كتابين فتناولتهما، فعلمت أن أحدهما من المقوقس إلى يوقنا، والآخر من يوقنا إلى أرمانوسة، فأخذتهما ودخلت على سيدتها فرأتها لاتزال غارقة فى بحار الهواجس.. فلما دخلت بربارة ذعرت والتفتت إليها كأنها تقول ماخبرك، وكانت بربارة مرتبكة والدموع ملء عينيها وهى تحاول إخفاء الكتب، فأدركت أرمانوسة ارتباكها فعاجلتها بالسؤال: «ألعل الرجاء قد انقطع؟».

قالت: «لا لم ينقطع الأمل ياسيدتى.. فإن اتكالنا على الله وحده، وهو قادر على إنقاذنا من مخالب الموت».

قالت: «ما هذه الكتب؟.. هل جاء الجواب من والدى؟ قولى ولاتظنى أنى كنت أنتظر فرجا منه...».

قالت: «نعم.. هو جواب والدك...».

قالت: «ألم يرسل أركاديوس كتابا؟...».

قالت: «لا ياسيدتى.. ولكنه سيبعث قريبا».

فلم تفهم مرادها، وقالت: «كيف لم يجب؟ ألعله تخلى عنى؟»..

قالت: «كلا ياسيدتى.. ولكن الرسول لم يره فى الحصن، وسلم الكتاب إلى صديق له ليسلمه إليه حال رجوعه».

فاستلقت أرمانوسة إذ ذاك على المقعد واستغرقت فى البكاء، فخافت بربارة أن تطلعها على كتاب يوقنا لئلا يزيد يأسها..

ولبثتا برهة فى ذلك، فإذا بقارع يقرع الباب.. وجاء أحد الخدم ينادى بربارة من الخارج، فنهضت ومسحت دموعها.. فقيل لها إن الحاكم يلتمس مقابلتك فذهبت إليه، فوقف لها وقال: «قد علمنا بأمر مولانا المقوقس بتسليم السيدة أرمانوسة ليوقنا صاحب هذا الجند، وقد بعث إلىّ هو الآن يستعجلنى فى طلبها، ولا يمكننا دفع أمر مولانا قسطنطين فهل استعدت السيدة أرمانوسة للذهاب؟».

فقالت بربارة على الفور: «إنها مسرورة لما تم لها من هذا الأمر، ولكنها لاتستطيع الخروج اليوم لانحراف ألم بصحتها.. فاستمهل الرسول إلى الغد».

قال: «حسنا.. ولكنى أمرت الجند بالاستعداد للاحتفال اللائق، فزينا القصر والشوارع قياما بواجب الاحترام لسيدى المقوقس».

قالت: «بارك الله فيك.. ونطلب إليه تعالى أن يشفيها لتستطيع الخروج غدا»..

ثم عادت بربارة وهى لاتدرى كيف تبلغ الخبر إلى سيدتها.

وكانت أرمانوسة كلما سمعت صوتا أو طرقا اضطربت حواسها لشدة تأثرها، فلما سمعت طرق الباب وخروج بربارة ابتدرتها بالسؤال عما حدث وقالت لها: «اعلمى يا مولاتى أن سيدى والدك قد أمر بأن تذهبى مع يوقنا، وهذا أرسل رسوله إلى الحاكم، فأعد معدات الاحتفال بخروجك إليه اليوم، ولكننى طلبت مهلة للغد بدعوى انحراف صحتك.. وسيدى أركاديوس لابد أن يكون قد وصله كتابى، وإذا لم يصله فإنه سيسمع خبر يوقنا ومهمته من والدك أو أحد أتباعه أو من سيدى أرسطوليس، ولا شك أنه حالما يسمع الخبر سيأتينا، والأمر عند ذلك راجع إليه.. فإذا لم يستطع إنقاذك فالملك قسطنطين أبقى لك».

فلما سمعت أرمانوسة اسم قسطنطين ارتعدت فرائصها، وقالت لها: «لا.. لا تذكرى اسمه، إن النار أحسن عندى من جواره».

قالت: «لا أقول لك أن تفضليه على البطل أركاديوس، ولكننى أريد أن تمسكى الحبل من الطرفين، فلو تظاهرت بالإذعان لأمر قسطنطين وسرت إلى معسكر يوقنا فإننا نطلب إليه الانتظار هنا مدة، ونبعث رسولا مستعجلا إلى سيدى أركاديوس بحقيقة الأمر صراحة.. فلا يمضى يومان أو ثلاثة حتى يأتى لإنقاذك، هذا ما أراه، والأمر لسيدتى».

فبهتت أرمانوسة وهى تفكر فيما سمعته، فإذا هو الصواب.. ولكن العواطف كانت تمسكها عن الإقرار بصوابه، فلم تجب..

فقالت بربارة: «ما بال سيدتى لاتجيبنى على ما ذكرته لها؟...».

قالت: «انظرى يا بربارة.. إنى، وحب أركاديوس وما له من المنزلة فى هذا القلب، إذا تحققت من وقوعى فى يد قسطنطين ويئست من أركاديوس، فلا شىء يشفى غليلى إلا الطعن بهذا الخنجر».

قالت ذلك، واستلت خنجرا كانت قد خبأته بين أثوابها..

فذعرت بربارة عند مشاهدتها الخنجر، وقالت: «ما هذا يا مولاتى.. ألعلك تقولين الصدق؟».

قالت: «هذا هو الصدق بعينه يا بربارة.. ولكنى أعدك أنى لا أقدم عليه إلا إذا تحققت من وقوع الكارثة، وأظنك عند ذلك تكونين أكبر مساعد على قتلى لأن فيه خلاصى من عذاب دائم».

فحاولت بربارة أن تأخذ الخنجر منها فلم تستطع، ولكنها أخذت منها عهدا ألا تعمد إلى الإضرار بنفسها إلا بعد نفاد كل حيلة.. فوافقتها بربارة على نية أن تخدعها وتسرق الخنجر من أثوابها.

أما يوقنا فقد كان عالما بخطبة قسطنطين لأرمانوسة، وحدثته نفسه أن تكون أرمانوسة عند فتح مصر غنيمة له، وكان يسمع بجمالها فأضمر ذلك فى نفسه، حتى أتى الفرما وهو يعتقد أن عمرا سيفتح البلاد لا محالة، ولابد من وقوع أرمانوسة فى جملة الغنائم.. ولكنه خشى أن يسبقه إليها أحد، فعمد إلى الحيلة وزور كتابا عن لسان قسطنطين يطلبها كما قدمنا..

ثم جاء بنفسه إلى بلبيس وترك جند عمرو مشتغلا بحرب الفرما،

وهو يأمل أن يتمكن بحيلته هذه من الذهاب بأرمانوسة بعد القبض عليها قبل وصول عمرو إلى بلبيس، وكان يظن عمرا سيمكث فى الفرما زمنا طويلا.. فلما جاءه كتاب المقوقس يوافقه على حمل أرمانوسة، بعث برسول يطلب مجيئها إليه، وبعث إلى حاكم المدينة أن يسرع فى ذلك، فأجابه أن السيدة أرمانوسة مريضة، فعزم على أن ينتظر شفاءها.. ولكنه علم تلك الليلة أن عمرا قد فتح الفرما ولايلبث أن يأتى بلبيس، فخشى إذا هو أبطأ فى القبض على أرمانوسة أن تذهب حيلته سدى.. فأرسل فى صباح الغد كتابا إلى الحاكم شديد اللهجة يطلب منه سرعة الخروج بأرمانوسة فى ذلك اليوم، وأنه إذا أبطأ فى إجابة طلبه عمد إلى القوة.

فبعث الحاكم إلى أرمانوسة وأطلعها على طلب يوقنا، فاتفق رأى بربارة وأرمانوسة أن تخرجا إلى معسكر يوقنا على نية أن تستمهلاه بضعة أيام قبل السفر، ولم تعلما بما عزم عليه من الإسراع، فأقيم الاحتفال وخرج الحاكم بأرمانوسة من قصره بالشموع والصلبان، وخرجوا بها كما يخرجون العروس المزفوفة إلى عريسها، حتى خرجوا من المدينة، فإذا بيوقنا قد خرج من معسكره برجاله متظاهرا بالاحتفاء بها حتى اقترب منها، فأخذها بيدها وأدخلها خيمة خاصة بها، فدخلت وتظاهرت بالتعب والضعف.. فتركوها فى الخيمة مع جواريها وبربارة، وتركها الحاكم بعد أن ودعها وعاد برجاله، ومكثت هى فى الخيمة وانفردت ببربارة، وقد اسودت الدنيا فى عينيها وعظم الأمر عليها، وخيل لها أنها أصبحت فى القفص ولم يعد لها مناص من الفرار منه.

ولكن بربارة كانت تعزيها بأنها أرسلت رسولا مستعجلا إلى أركاديوس، وأنه سيكون عندها بعد يومين، ثم لم تمض برهة حتى سمعت ضوضاء فى الخارج، فخرجت بربارة فرأت يوقنا قادما بنفسه وقد لبس الثياب الرومانية وتظاهر برومانيته.

فطلب مقابلة أرمانوسة فأذنت له فدخل، فحالما رأته تشاءمت بمنظره وخصوصا لأنه رسول قسطنطين.. ولكنها تجلدت وتظاهرت

بالضعف والتعب، وكانت مستلقية فجلست، فجلس بين يديها متظاهرا باللطف والإيناس وقال: «بماذا تشعر سيدتى.. أرجو أن تكون بخير؟».

قالت: «لا أستطيع الركوب والسفر قبل مضى بضعة أيام».

فقال: «أرى أن الإسراع فى المسير أولى، لأن سيدى ابن الامبراطور ينتظر قدومك.. وقد أعد لك كل ماتقر به عيناك».

فأمسكت عن الجواب وهى لاتدرى بماذا تجيب، فلاحظت بربارة التغير فى وجهها فابتدرته بالجواب قائلة: «ألا ترى ياسيدى أن سيدتى خائرة القوى لاتستطيع الركوب؟».

قال: «نعم أرى ذلك، ولكنها ستحمل فى الهودج على أكتاف الرجال فلا تشعر بشىء من التعب، هلم انظريه».

ثم نهض وخرج بها من الخيمة، فرأت الهودج والرجال تحمله والجند آخذون فى تقويض الخيام والتأهب للرحيل، فتحققت من حبوط مسعاها وانقطاع الأمل.. فاغرورقت عيناها بالدموع، ولكنها أمسكت نفسها خيفة أن يظهر ذلك عليها.. وعادت إلى الخيمة مع يوقنا صامتة، فأتم هو حديثه قائلا: «ها أن خادمتك قد شاهدت الهودج بنفسها معدا لحملك، فإذا أذنت مولاتى فلتكن مستعدة للسفر فى أصيل هذا اليوم».

فقالت: «لا أستطيع السفر وأنا مريضة.. فأمهلنى يوما أو يومين».

قال: «لايمكننى ولا فائدة من الأخذ والرد.. وسأعود إليك بعد قليل لنحملك والسلام».. قال ذلك وخرج، وبقيت بربارة وأرمانوسة فى الخيمة منفردتين، فالتفتت ارمانوسة قائلة: «وما رأيك الآن يابربارة؟ ألم يئن وقت الانتحار».

قالت ذلك ومدت يدها إلى خنجرها، وكانت بربارة لم تستطع أن تسرقه بالأمس، فرمت بنفسها عليها وأمسكت يدها قائلة: «لا أصدق يا مولاتى أن يدك اللطيفة تستطيع قتل النفس، ألا تعلمين أنك بذلك ترتكبين جريمة قتل؟».

فقالت: «إن موتى وهلاكى فى أسفل الدركات خير لى من أن أستبدل اركاديوس حبيبى بـ ....».

قالت ذلك وخنقتها العبرات ثم أغمى عليها، فأسرعت بربارة إلى الخنجر فأخفته، وخرجت لتنادى بعض الجوارى ليساعدنها وأسرع يوقنا إلى الخيمة ليرى ماذا يحدث.

النجاة

وفيما هم فى ذلك، دخل عليهم أحد رجال يوقنا يستأذن فى دخول رسول قادم من الأمير عمرو بن العاص، فبغت يوقنا للحال.. ولكنه أذن له بالدخول فدخل، فحيا يوقنا ودفع إليه كتابا ففضه وقرأه وأرمانوسة وبربارة تنظران إلى الرسول وتتأملانه وترجوان خيرا من قدومه، فنظر هو إليهما وحياهما وهم بيد أرمانوسة كأنه يحاول تقبيلها، وسلم على بربارة فتأملته فإذا هو مرقس، فأشارت إلى سيدتها وهمست فى أذنها أنه مرقس رسولها.. فالتفتت إليه أرمانوسة فآنست فى وجهه أمارات البشر، ونظرتا إلى يوقنا وهو يقرأ الكتاب فرأتا لونه يتغير والرق يرتجف بيده من شدة التأثر، وما أتم قراءته حتى ظهر عليه الارتباك.. ووقف برهة صامتا ينظر إلى الكتاب كأنه يقرأه، ولكنه كان غارقا فى بحار الهواجس.

ثم تظاهر بالتجلد وقال لمرقس: «كيف فارقت الأمير؟».

قال: «فارقته وقد أقلع عن الفرما قادما إلى بلبيس». فأسرع يوقنا فى الخروج، أما أرمانوسة فإنها توسمت خيرا بمجىء مرقس، وقالت: «ما الذى جئت به يا مرقس؟.. وما الذى أوجب غيابك؟».

فتقدم إليها قائلا: «قد جئتك بالفرج يا مولاتى، وأما تأخرى فقد كان بقضاء منه تعالى».

ثم أراد أن يحكى له حكايته فخشى أن يسمعه يوقنا، فكلمها بالقبطية قائلا: «علمت بخيانة هذا الرجل، وأنه قادم بدسيسة ــ يتظاهر أنه موفد بأمر قسطنطين وما هو مرسل منه ــ أما الكتاب الذى جئت به الآن فهو من عمرو بن العاص أمير العرب القادمين لفتح هذه البلاد يهدده فيه ويأمره ألا يتعرض لك بسوء».

فرفعت بربارة يديها إلى السماء قائلة: «نحمد الله على ما أتانا من الخير على يدك يا مرقس»..

أما أرمانوسة فلم تعلم كيف تشكره، على أن علو مكانتها أمسكها عن كثرة الأطناب فيه، ولكن مظاهر الامتنان كانت تتجلى على وجهها.

فقالت له بربارة: «أخشى أن يحمله غيظه على الإسراع فى أذيتنا انتقاما منا»..

قال: «لا أظنه يجسر على الإتيان بشىء بعد هذا الكتاب، فإنه يهدده تهديدا شديدا إذا مسكما بسوء، ولا أظنه إلا مبادرا بالفرار.. وها أنى ذاهب لاستطلاع الخبر»..

فقالت أرمانوسة: «لا أزال خائفة يا بربارة، وما أدرانا أن العرب صادقون ، وربما إذا تخلصنا من شر وقعنا فى شر أعظم».

قالت: «ثقى بالعرب لأنهم إذا أمنوك فأنت فى أمان مع ما نعلمه من اتصال سيدى والدك بهم».

أما مرقس فخرج من الخيمة، فرأى يوقنا ورجاله يحملون أحمالهم، وقد ركب يوقنا جواده وركب رجاله.

فعاد مرقس بلهفة ينبىء أرمانوسة بفرار يوقنا برجاله وهم جماعة كبيرة، فقالت: «دعه يذهب إلى جهنم».

ثم خرجت بربارة فرأت المكان قفرا ، فقالت: «أرى يا مرقس رجلا بلباس عربى، جالسا على تلك الأكمة»، فقالت أرمانوسة : «من هو؟».

قال: «هو ياسيدتى رسول من الأمير عمرو بن العاص إلى سيدى والدك، وسأحكى لك حكايته بعد أن تطمئنى».

فأرسلته إلى حاكم بلبيس ليبعث من يحملها إلى منزلها، فأسرع مرقس إليه، فجاء الحاكم بجماعة من رجاله حملوا السيدة أرمانوسة وحاشيتها إلى قصرها .

أركاديوس والأعيرج فى الحصن

لنرجع إلى أركاديوس، فقد فارقناه فى الحصن بعد مسير بربارة على موعد منها بالجواب عما يتم لأرمانوسة، فقضى بضعة أيام على مثل الجمر إلى أن استبطأ عودتها، فقلق وخشى أن يكون فى الأمر خديعة وندم على تسليمه ختمه لامرأة لم يرها إلا تلك المرة، ففكر فى ذلك طويلا والهواجس تتقاذفه، فدخل عليه جندى وقال: «إن سيدى الأعيرج يدعوك إليه حالا فأسرع إليه»، فإذا هو يذرع غرفته ذهابا وإيابا، وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما.

فلما دخل أركاديوس سلم عليه وسأله عن أمره، فقال: «خذ يا أركاديوس هذا الكتاب واقرأه».

فتناوله فإذا هو مكتوب باللغة القبطية وعليه توقيع البطريرك بنيامين.

فقال: «وما هذا ياسيدى ؟».

قال: «أنا لا أعرف القبطية جيدا، ولكنى فهمت من هذا الكتاب أنه مرسل من البطريرك الذى هو عدو الرومان، يحمله رجل من رجال المقوقس إليه.. فلابد من أن يكون فيه دسيسة علينا، اقرأه وفسره لى حالا».

فقرأه أركاديوس فإذا هو كما قال حقا، وكان الكتاب الذى حمله جرجس من بلبيس ليعطيه للمقوقس، فعلم أركاديوس أن والده إذا عرف ما فيه أمر بالقبض على المقوقس، وتعاظم الشر بينهما.. فيكون ذلك سببا ليأسه من أرمانوسة، فحرف الترجمة قائلا: «إن فيه تحريضا للمقوقس على الروم، وربما كان ذلك عن غير رضى من المقوقس».

فأدرك الأعيرج أن أركاديوس يريد إخفاء شىء من الحقيقة عنه، فقال: «أراك تمالىء الأقباط على مرادهم يا أركاديوس وتتجاهل الحقيقة، وما أدراك أن ذلك بغير رضى المقوقس، وقد رسخ فى أذهاننا

أن هؤلاء القبط لايحبوننا».

فقال أركاديوس: «وما الداعى لانحيازى إليهم وأنا أول نصير للروم كما تعلم، ولا أحب أحدا غير الرومان».

قال: «لا أجهل عظم إخلاصك للروم، ولكننى شممت من كلامك رائحة الدفاع عن القبط.. ونفسى تحدثنى بأن أبعث إلى المقوقس وهو الآن فى الحصن، فاقبض عليه وأكبله فى القيود».

فقال: «تمهل يا أبى، إنى لا أعهد فيك إلا التروى والحزم، ألا تعلم أن مجاهرتنا بعداء القبط تضر بمصلحتنا، لأنهم يتوسمون بذلك بابا للخروج من طاعتنا، والأعداء على الأبواب، فيكونون عونا لهم علينا.. فأرى من باب الحزم أن تتغافل عن أعمالهم وتظهر لهم الإخلاص إلى أن نرى ما يكون من حربنا مع العرب».

ففكر الأعيرج برهة، ثم قال: «صدقت يا ولدى.. وهذا ما أنا عازم عليه، فأبق هذا الأمر مكتوما، ولكن أقسم بشرف الروم وكرسى القسطنطينية، لأنتقمن من المقوقس شر انتقام، فقد نسى هذا الخائن أصله وخان دولته، وتحدثنى نفسى أن أكتب بشأنه إلى الامبراطور ليعلم أنه خائن فلا يصاهره».

وبات أركاديوس تلك الليلة لم يذق طعم النوم، فأخذ يفكر فى أمر أرمانوسة وقسطنطين ووالده، وقد علم أنها إذا نجت من مخالب قسطنطين فلن يأذن له والده بالزواج منها.

وفى صباح اليوم التالى، جاءهم الجواسيس ينبئونهم بنزول العرب على الفرما، فأخذوا فى الاستعدادات الحربية.. فبعث الأعيرج ابنه أركاديوس ليشرف على قطع الجسرين الموصلين بين الحصن والجزيرة بينهم وبين البر الغربى، فلما عاد من مهمته أخذ الكتاب وتأمل مافيه من الرموز، ففهم أن أرمانوسة فى ضيق وأنها تستنجد به، ولكنه لم يفهم سبب ذلك الضيق.

فخطر له أن يستطلع ذلك بالحيلة من صديقه أرسطوليس، فذهب

إليه فى الموضع الذى اعتاد أن يكون فيه ،رآه قادما فاستقبله مسلما، قال اركاديوس: «لقد أطلت الغيبة على يا أرسطوليس، وقد عودتنى أن نلتقى يوميا».

قال: «كنت فى شغل مع والدى بشأن ارمانوسة فى هذين اليومين».

فلما سمع اسم ارمانوسة كاد يتجلى الاحمرار فى وجهه، فاعتراه الارتباك وتولته الدهشة بسبب اشتغال ارسطوليس ووالده بها.

فقال: «وما هو السر فى ذلك؟.. لعله خير».

قال: «هو خير إن شاء الله، فإن مولانا قسطنطين بن هرقل قد بعث وفدا يحمل أرمانوسة إليه على أن يكون فى انتظارها عند بحر الروم، ليسير بها إلى القسطنطينية».

فخفق قلب أركاديوس حرصا على أرمانوسة، مخافة أن تذهب من يديه، ولكنه تجلد وقال: «وماذا بعد ذلك؟».

قال: «ورد لوالدى كتاب من قسطنطين بهذا الشأن، فبعث إلى حاكم بلبيس أن يسلمها إليه، وكان بودنا أن يذهب والدى أو أنا كى نودعها. ولكن اشتغالنا بالاستعدادات الحربية حال دون ذلك».

فلما سمع أركاديوس الخبر، لم يعد يتمالك نفسه عن الاضطراب من شدة التأثر.. وتعاظم الأمر عليه، وتحقق أن أرمانوسة قد استنجدت به لهذا السبب، فكيف لايذهب لنجدتها، فتظاهر بأنه تذكر أمرا يستدعى سرعة ذهابه إلى غرفته، ،فخرج مسرعاً وهو لايدرى أيتقاعد عن نجدة ارمانوسة وقد استنجدت به أم يعرض نفسه لغضب والده.

ثم هب بغتة إلى خوذته فلبسها وتقلد حسامه وهم بالخروج من الغرفة يريد الركوب إلى بلبيس، فرأى فى عمله هذا خطرا ظاهرا، فأمسك عواطفه وعاد إلى الغرفة ووقف إلى النافذة وغرق فى بحار من الهواجس لايدرى أيستجيب لعواطفه أم لعقله، وبقى كذلك إلى المساء، وقد نسى نفسه، فدخل عليه أحد الجند قائلا: «إن رسولا

بالباب ياسيدى» .

قال: «فليدخل» .

فحالما رآه علم أنه قادم من بلبيس، فدفع إليه كتابا فإذا هو من أرمانوسة، وهى تقول فيه: «إذا كنت تحب أرمانوسة فأسرع إلى بلبيس لإنقاذها لأنها أصبحت بين مخالب الموت» ..

فلما قرأ الكتاب، اتقدت نيران الغيرة والنخوة فى دمه، فنسى والده وكل دولة الروم، وأسرع إلى جواده فركبه وخرج من باب الحصن لايلتفت يمنة ولا يسرة.. وأطلق لفرسه العنان.

وكان الليل حالكا والطريق وعرا،وبعد نصف الليل بقليل، تعب الجواد فجعل سيره حثيثا.

حتى دنا من بلبيس، والسور محيط بها والأبواب مقفلة والحامية على الأسوار حذرا من قدوم العرب.. فخاف إذا دنا من السور أن يصيبه شر لأنهم لايعرفونه، وتحير بين أن ينتظر حتى الصباح فيدخل المدينة بحيلة، أو أن يسير متتبعا الجند الذين قيل حملوا أرمانوسة، وفيما هو يسير على مسافة من المعسكر عثر جواده حتى كاد يكبو، فنظر إلى ما عثر به فإذا هو حبال وأوتاد.. فترجل وتأمل ذلك المكان، فعلم أنه أثر مضرب خيام وقد بقيت آثارها هناك، فتأمل وضع الخيام على قدر ما سمحت له الفرصة لاشتداد الظلام فعلم أنها خيام رومانية، وشاهد مع ذلك آثار آنية وثياب رومانية، فتحقق أنها الخيام التى أقلع أهلها فى صباح الأمس، ومازال يفتش فى تلك الآثار متحيرا حتى دنا الفجر وأخذت تلك الآثار تتجلى له، فشاهد خيمة لا تزال مضروبة فى آخر ذلك المعسكر فسار وقاد جواده وراءه لعله يصادف فيها خيرا، فسمع صوتا يناديه من داخل الخيمة: «من القادم؟» ، فعرف أن الذى يخاطبه من جند الروم.

فقال: «بل من أنت.. ألعلك عدو أو صديق؟» .

فقال: «أنا من جند الروم» .

قال أركاديوس: «فلا بأس عليك لأنك من جندنا» .

فخرج إليه الرجل من الخيمة ، فقال له اركاديوس: «ما بالكم مقيمون فى هذه الصحراء؟.. ولماذا لم تقيموا داخل الأسوار؟» .

قال: «قد أقمت أنا وجماعتى الليلة هنا بأمر مولانا الحاكم بعد فرار يوقنا أمس من هنا» .

فقال: «وكيف فر وقد جاء ليأخذ أرمانوسة؟» .

قال: «اكتشفوا أنه جاء بدسيسة، ولم يكن مرسلا من مولانا قسطنطين كما ادعى، وبعد أن خرجت السيدة أرمانوسة إلى هذا المكان، ومكثت فى هذه الخيمة مدة وقد أعدوا الأحمال وهموا بالمسير، جاءهم رسول بكتاب من كبير العرب القادمين إلى هذه الديار.. فخاف وترك أرمانوسة وفر برجاله» .

فأحس أركاديوس عند ذلك كأن ثقلا كبيرا تزحزح عن صدره، وقال: «وإلى أين ذهبت هى؟» .

قال: «عادت إلى قصر الحاكم في بلبيس» .

فتحقق أركاديوس عند ذلك أن أرمانوسة لاتزال بخير ولم يأخذها أحد، فاطمأن باله، ولكنه أراد أن يقابلها ويخاطبها ويشفى غليل شوقه إليها.. وتحير كيف يدخل المدينة صباحا خشية انكشاف أمره..

وفيما هو يفكر في ذلك تحول عن الخيمة لئلا يشتبه فيه أحد.. فحانت منه التفاتة فرأى رجلا ينظر إليه عن بعد ويتأمله ولايجسر أن يدنو منه، فبقى اركاديوس ماشيا وقد أخذ بزمام فرسه، فرأى الرجل يدنو منه فخشى أن يكون قد جاء بخديعة فناداه: «من أنت؟» .

قال: «أنا مرقس، ولكنى أتهيب لباسك وأخشى من هذا الجواد» ..

قال: «وهل تعرف جواد من هذا؟»

قال: «نعم أعرف أنه جواد البطل أركارديوس بن الاعيرج»

فقال: «فاعلم اذن إنى من أصحاب اركاديوس.. وهذا يكفيك» .

فارتبك مرقس فى أمره . فقال له أركاديوس: «تعال معى على

انفراد» . فجلسا تحت شجرة ورفع أركاديوس اللثام عن وجهه، فحالما رآه مرقس وقف مبهوتا،وقد ذعر وقال : «العفو ياسيدى.. هل أنت مولانا أركاديوس ؟»

قال له : «إنى بإزاحة هذا اللثام قد أطلعتك على سر لم يطلع عليه أحد، فاحذر أن تتفوه بكلمة أمام أحد، هل فهمت؟ » .

قال: «نعم ياسيدى .. وانى أقسم لك أني أخلص في كل ماتريد إلا مايخشى منه الضرر للسيدة أرمانوسة لأن لها عليّ فضلا مثل فضلك، فإذا عاهدتنى أن لا تؤذيها فى شىء أطلعتك على الحقيقة.. وإلا فإننى مصر على الكتمان ولو قتلتنى».

فازداد اركاديوس شوقا لمعرفة الحكاية ، وعاهده على عدم التعرض بأذى لأرمانوسة مهما كان من أمرها.

فقص مرقس عليه حكايته من يوم أن خرج من الحصن مع بربارة ثم بذهابه الى الفرما للتحقق من موت خطيبها، وماتم له من أمر يوقنا الى آخر الحكاية ..

فانجلت المسألة لأركاديوس جيدا، وسر كثيرا لنجاة أرمانوسة، وأعجب بشهامة ذلك الشاب لأنه كان وسيلة لإنقاذها، ورأى من نفسه ميلا إلى مكاشفته بأمره توسما للخير فيه.

فقال له: «أما وقد رأيت فيك هذه المروءة، وعلمت ما تكنه من الإخلاص لأرمانوسة، فسأطلعك على أمر لم يطلع عليه أحد سواك.. ولكننى أتوقع أن تحتفظ به سرا وتبقى على مروءتك» ..

فابتدره مرقس قائلا: «إنى مطيع لك فى كل ما أمر تأمرنى به».

فقال أركاديوس : «أطلب اليك ألا تذعن لأحد فى أمر يمس أرمانوسة بأقل ضرر.. فإنها ولا أخفى عنك أعز شخص عندى» .

فتعجب مرقس لذلك ولم يصدقه، وظن انه يريد مغالطته فقال : «يكفينى أنك لا تريد بها ضررا» ..

قال : «انظر يامرقس وافهم ما أقوله لك .. انت تعلم منزلتى

ونسبى.. ولا تعجب لمكاشفتى إياك واستسلامى لك، فقد لمست فيك شهامة ومروءة سهلا على ذلك، فاعلم أنى أحب ارمانوسة حبا شديدا، ولم يعرف بهذا الحب أحد سواها وخادمتها بربارة». وأوضح له حكايته بقدر ما يسمح له مركزه وقال : «وقد جئت الآن سرا لا يعلم بأمرى كل من فى الحصن كي أنقذها، إذ بلغنى ان قسطنطين بعث ليستقدمها مع يوقنا. فأكلفك أمرا أرجو أن تقوم به بحزم ودراية بحيث لا يلحظ منك أحد شيئا، فأنا أريد مقابلة أرمانوسة قبل عودتى الى الحصن..؟» .

قال: «هل تريد أن توافيك الى مكان خارج المدينة على انفراد؟» .

قال: «نعم. ولكن كيف يتحقق ذلك دون أن ينكشف أمرنا؟» .

ففكر مرقس قليلا، ثم قال : «أرى أن أكاشف سيدتى أرمانوسة بما دار بيننا» .

فقال اركاديوس: «أرى أن أتنكر فى لباس مثل لباسك، وأسير أنا بصفة رسول اليها، فتأخذ أنت هذا الجواد وتحفظه حتى أعود.. فتكون فى انتظارى على الطريق، فأركب وأسير فى طريقى» .

فقال مرقس : «لقد رأيت حسنا.. فهل أعطيك ثيابى الآن؟» .

قال: «هات خوذتك ورداءك وسيفك، وخذ هذه الدرع وهذا الحسام وهذا الفرس.. واحذر أن تخبر أحدا بأنك رأيتنى أو عرفت شيئا عنى» .

فتبادلا الثياب، وأخذ مرقس الفرس والدرع والحسام. وسار اركاديوس كأنه أحد جنود الروم قاصدا بلبيس، فلما اقترب من الأسوار كانت الأبواب قد فتحت، وأخذ أهل تلك الخيمة فى تقويضها وحملها .. فدخل هو مع الداخلين ولم يفطن له أحد .

لقاء الحبيبين

أما ارمانوسة ، فباتت تلك الليلة تفكر فى عدم مجىء أركاديوس لنجدتها بعد أن بعثت اليه مرتين، وكاشفت بربارة بذلك، وفيما هما

فى الحديث، جاء أحد الخدم يقول : «ان رجلا بالباب يريد السيدة أرمانوسة».

فسألت بربارة عن الرجل، فقيل لها انه من الجند ولعله رسول .. فهرولت إليه بربارة، ثم قالت له : «ماذا تريد ؟» فقال : «أريد السيدة أرمانوسة، فإنى رسول اليها من صديقى مرقس وقد جئت لأشكرها بالنيابة عنه». فقالت: «انها لا تزال فى الفراش وسأخبرها بقدومك وربما اذا عدت اليها بعد قليل تسر بمقابلتك».

فقال: «لا .. بل أريد مقابلتها الآن» ..

قالت : «ربما كانت سيدتى غير مستعدة لمقابلة أحد الآن». فأمسكها بيدها وقال: «أظنها إذا عرفت من أنا فإنها لا تمتنع عن مقابلتى، فإنى رسول جئتها ببشارة حسنة من أركاديوس بن الاعيرج.. فهل تعرفينه يابربارة ؟».

فلما سمعت تلك اللهجة منه، ترجح لديها انه هو .. فتلفتت حولها فلم تر أحدا من الخدم ، فقالت له : «ألعلك سيدى أركاديوس ؟» ..

قال : «ربما كنت هو (وتبسم) فأين سيدتك يابربارة ؟».

فبغتت وخفق قلبها، وقالت : «تمهل قليلا .. لأن فى دخولك الآن فجأة خطرا عليها، فاصبر قليلا غير مأمور، لأمهد السبيل للقائك».

ثم دخلت على سيدتها وعلى وجهها أمارات البشر وهى تضحك ، فلما رأتها أرمانوسة عجبت لسرورها ، فقالت : «من القادم ؟». قالت: «يقول انه رسول قادم من عند سيدى اركاديوس».

فبغتت ارمانوسة ونهضت قائلة : «أخبرينى ماهى رسالته ؟».

قالت : ان الواقف بالباب الآن إما أن يكون أركاديوس او رسولا من عنده، وقد تركت أمر تمييزه لفطنتك .. فهل تريدين أن يكون أركاديوس أو رسولا من عنده ؟».

قالت : «افصحى، فقد نفد صبرى .. هل هو اركاديوس أو رسوله ؟.. قولى» ..

قالت : « إنه سيدى وحبيبك أركاديوس. فهل تأذنين له بالدخول ؟» ، فخفق قلبها فرحا وبغتة، وعلا وجهها الاحمرار ثم تلاه الاصفرار ، وقالت وصوتها يرتجف : «فليدخل» ، ثم استأنفت فقالت : ولكن تمهلى يابربارة.. انى أرى قلبى يخفق كثيرا ، ولا أدرى ماذا يتم لى عند مقابلته» ..

فقالت لها : «تشددى وتجلدى، والا فإنى أقول له إن سيدتى ليست هنا أو انها لا تريد مقابلتك».

وخرجت بربارة . وبعد لحظات، عادت ودخل أركاديوس وراءها. وحالما وقع نظره عليها، نزع خوذته عن رأسه واقترب منها وهى جالسة الى المقعد، فأرادت الوقوف فنازعها الحياء والارتعاش فلم تستطع. أما هو فمد يده فصافحها، فأحس ببرودة أناملها وارتعاشها.. ونظر الى وجهها فرأى الحياء يعلوه، وقد أطرقت لا تستطيع النظر اليه.

ولكنها ظلت ممسكة يده بيدها، وبقيا لحظة صامتين والهوى يتكلم، ثم بدأ هو قائلا : « كيف حال ذلك الخاتم يا أرمانوسة ؟».

فرفعت رأسها ونظرت إليه والحياء يمنعها عن الجواب، ثم أطرقت وقد ازداد خفقان قلبها حتى كاد يغمى عليها ، فشعر أركاديوس بذلك فأراد مداعبتها فقال وهو يضغط بأنامله على يدها : «أين وضعت الخاتم ؟»

فنظرت اليه وهى تبتسم، وأشارت الى قلبها ..

فقال : «وماذا فعلت بقسطنطين ؟». فجذبت يدها من يده والتفتت اليه شزرا .

فتناول كرسيا كان الى جانبه وجلس، وقد أخذ منه الهيام مأخذا عظيما، فأمسك بيدها وضغط عليها قائلا : « كفانى توبيخا يا ارمانوسة» .

قالت : «لقد أخطأت الظن وأنا المستحقة للتوبيخ، لأنى لم أصرح على رؤوس الاشـهـاد بأنى لا أريد ذلك الرجل.. ولكنك تعلم حالى»..

فقال : «قلت لك يكفينى توبيخا، وأنت تبالغين فى توبيخى.. فإذا كنت ترين فى كتمانك قصورا، فكم يكون قصورى؟!.. ولكنك لا تجهلين أمرى أيضا».

قالت وهي مطرقة وقد ازداد تورد وجنتيها وتلألأ العرق على جبينها : «أنا أعلم أنك مقيد بإرادة والدك، فلا لوم عليك اذا تركتنى مراعاة لخاطره، ولكننى أود قبل مماتى أن تتحقق مما لك فى هذا القلب..» قالت ذلك وشرقت بدموعها.

فقال لها «هل تظنين ان إرادة والدى تحول بينى وبينك وقد سلمتك خاتمى وقلبى؟. وما الذى ساقنى إليك الآن مخاطراً بحياتى وأنا لا أدرى ما يسوقنى إليه غضب والدى إذا علم أنى غادرت الحصن على حين غفلة ونحن فى حال الحرب، وكم يكون غضبه اذا علم انى جئت لأجلك؟!» .

فجذبت يدها من يده وهى لا تزال مطرقة وقالت : «قلت لك إنك مقيد بإرادة والدك فكذبتنى».

فقال لها: «اعلمى يا أرمانوسة ان أركاديوس لايطيع أحدا فى سبيل اغضابك، ولايثنيه عنك أمر فى السماء أو الأرض. وهيهات أن ينال منك ابن الامبراطور شعرة ، الا اذا أردت أنت التقرب من البلاط الملكى وفضلت القسطنطينية على هذا الأسير المفتون».

فتنهدت تنهدا عميقا والتفتت اليه قائلة : «أراك تستهزئ بعواطفى أو لعلك تستضعف جنس النساء .. فلا تعتقد بثباتهن فى الحب، ولا يعلم مقدار ما أنا فيه الا هذه الرفيقة العزيزة التى هى بمنزلة والدتى، وان هذا الخنجر الذى لم يفارقنى لأكبر شاهد على صدق محبتى لأركاديوس» .

فخفق قلبه، وقال : «ماذا تعنين بالخنجر؟» ..

فتقدمت بربارة ، وقالت: «ان هذا الخنجر ياسيدى كانت تخفيه عنى، ثم علمت انها كانت تريد الانتحار اذا وقعت بين يدى قسطنطين، وقد كادت توقع بنفسها ضررا عند قدوم يوقنا» .

فأعجب أركاديوس بثباتها وشهامتها، وازداد ولعا بها، فقال : «أنت فى مثل هذا الثبات وتشكين فى ثباتى.. ثقى يا أرمانوسة ان هرقل وجنوده وأهل الأرض قاطبة لايستطيعون أن يمسوا شعرة من شعرك واركاديوس حى يرزق، ولو أنى أعلم ان مجاهرتى بحبك الآن لا تأتيك بضرر لوقفت على قارعة الطريق وناديت بأنى متيم فى هواك.. ولكننى رأيت من الحزم أن نصبر حتى يأتى الله بالفرج، فهل أنت باقية على العهد؟» .

قالت : أتسألنى يا أركاديوس بعد ما شاهدت؟! أتسألنى عن البقاء على العهد وقد خالفت الشرع والعرف من أجلك؟! » ..

قال : « فلنأخذ الأمر إذن بالحزم والتروى ، فإن قسطنطين لن يطمع فيك والحالة لا تسمح بذهابك اليه، ولو أراد والدك ذلك.. فإن العرب قد قطعوا السبيل على المارة ولابد من أن تنقضى هذه الحرب إما لنا ، أو علينا، وستسمعين عن حبيبك أركاديوس مايسرك. والله لأحاربن الروم والعرب فى سبيل رضاك».

فأمسكت بيده قائلة : «لا تذكر الحروب ولا المحاربة.. إنى أخاف عليك من النسيم، وكيف تقول انك تحارب عنى؟!».

قال : «وماذا إذن؟!» .

قالت : «دعنا من الحرب.. وهلم بنا نرحل من هذه البلاد بلاد المخاطر والقلاقل» .

فوقف بغتة ويده على حسامه وقال : « أتريدين أن يفر اركاديوس من وجه العدو.. وهل ترضين به جبانا يخاف الموت؟.. فما معنى تقلدى هذا الحسام اذن؟» .

ونهض اركاديوس عند ذلك وهو يقول : «لابد لى من العودة حالا، لئلا يلحق بى عار لتخلفى عن الحصن ونحن فى حرب..» .

فنهضت أرمانوسة ونظرت إليه وهى غضبى لا تريد فراقه، ولكنها قالت له : «سر فى حراسة الله..» .

قال : «سأستحث والدك أن يستقدمك من بلبيس عندما يتحقق من خيانة يوقنا» .

قالت : «افعل ذلك يا أركاديوس .. فأنا على العهد الى أن يقضى الله بما يشاء» .

فهم بالخروج ، ولكنه عاد فقال لها : «ولكن ألا ترين أن تنعمى على أركاديوس بتذكار منك ؟» .

قالت : «وماذا عسى أن أقدم لك وقد ملكت كل عواطفى، ولكن لدىّ تذكارا ثمينا أخذته من والدتى لم يفارق عنقى منذ صباى، وهو أثمن ماعندى من الحلى، وهو هذا الصليب» ، ومدت يدها الى عنقها وأخرجت سلسلة ذهبية علق بها صليب ذهبى مرصع نقش عليه اسمها بالقبطية وناولته إياه، فتناوله وقبله قائلا : «لا ريب عندى ان هذا الصليب سيدفع عنى كل غائلة، ويقينى من كل شر» ، قال ذلك وعلقه فى عنقه وخبأه بين أثوابه، ثم أمسك يدها وودعها وهو يقول : «اذكرى أركاديوس ولا تنسيه فإنه سيذكرك مابقيت ذاكرة له، وسيتسعيذ باسمك فى حومة الوغى يوم تتقارع السيوف» .

حصار بلبيس

أسرع أركاديوس يطلب مرقس ليركب الى الحصن وقد شعر بما يهدده من غضب والده، وكأنه كان فى سكرة وصحا بغتة.. فهرول يطلب مكان مرقس، فجعل يطوف كالتائه. ولما لم يره وقف حائرا لا يدرى الى أين يذهب، فحدثته نفسه أن يسير الى حيث فارقه لعله بقى هناك مختبئا. وبينما كان راجعا رأى غبارا يتصاعد عن بعد

فوقف ينظر الى ما وراء ذلك الغبار.. فإذا به قد انكشف عن جيش جرار تتقدمه الأعلام والفرسان ، فعلم أنه جيش العرب قدم إلى بلبيس ، فوقف متحيرا يحرق أسنانه لما أصابه بفقدان فرسه وسلاحه، ولبث يفكر فى أمره والجند يقترب نحوه .. فخشى عاقبة وقوفه هناك وهو راجل لا يستطيع النجاة لو أدركه فارس من أولئك الفرسان. ولم يكد يفكر فى ذلك حتى رأى فارسا يعدو نحوه بأسرع من لمح البصر، فلم تطاوعه انفته وشهامته أن يلوذ بالفرار منه، فبقى واقفا وقد تهيأ للدفاع ، فإذا بالفارس من فرسان العرب وعليه العمامة والشملة وقد دنا منه وناداه بالعربية، فلم يفهم أركاديوس مراده فهول عليه بالرمح، فاستل هو الحسام وهجم عليه، وقد أدرك عظم الخطر المحدق به.. ولكنه نسى نفسه وموقفه فى سبيل شجاعته ، وضرب الفارس ضربة بالحسام أصابت ساق الفرس فتعطلت، فنزل الفارس اليه وجعلا يتضاربان.. فأعجب الفارس بشجاعة أركاديوس وعدل عن قتله، وأراد ان يسوقه أسيرا، ثم جاء فارس آخر وتعاون الاثنان على أركاديوس .. فطعنه أحدهما بالرمح فأصاب زنده فسقط الحسام من يده، فهم به الاثنان وأوثقاه وسارا به الى المعسكر. وكان جند العرب قد وصلوا اذ ذاك، وأخذ العبيد فى ضرب الخيام وإنزال الأحمال ونصبوا خيمة الأمير عمرو فى ميمنة المعسكر، وأنزلوا الهوادج وجعلوا يشتغلون فى تدبير شئونهم.

فحملوا أركاديوس وأدخلوه خيمة الأمير، فوقف بين يديه موثقا وتقدم اليه وردان وسأله بلسان الروم قائلا : «ألعلك من جند الروم أم أنت من رجال المقوقس ؟..» .

قال : « كلنا جند واحد سواء من الروم أو الأقباط» .

فقال له المترجم : «وما الذى جاء بك الى هذا المكان؟..» .

قال : «خرجت من المدينة فى حاجة فظفر بى رجالكم منفردا فأمسكونى، وليست هذه عادة الأبطال .. ونحن نسمع أن العرب لا يغدرون » .

قال : «نعم .. ان العرب أصدق الناس عهودا وأحفظهم لمقام الرجال ، ولكن حال الحرب تقضى بالقبض عليك.. فأخبرنا بما عليه جندكم ولا تخف شيئا، فإنك بين أيدينا ولا ينقذك الا الصدق» ..

قال : «ونحن لا نعرف غير الصدق شعارا، ولولا ذلك ما امتدت سطوتنا على الخافقين . ولست أخشى الموت اذا هددتمونى به . أما جندنا فكلهم أبطال لا يهابون الموت ولا يخافون العدو» .

فقال عمرو لوردان : «دعه يجلس» . فأذن له بالجلوس ..

فقال : «لا حاجة بى الى الجلوس .. قل ما بدا لك..»

فعجب عمرو لرباطة جأشه وما يتجلى فى وجهه من الشجاعة وماينبعث من حدقتيه من الذكاء ، فقال له : «ألعلك من أفراد الجند أو أنت من كبارهم ؟..» .

قال : «بل أنا من أفراد الجند.. وأما قوادنا فستلقونهم فى ساحة الحرب» ، فازداد عمرو اعجابا بشجاعته لأنه كان محبا للشجعان ..

أما جلساء عمرو فاستنكفوا من جرأته ، فقالوا لعمرو : «ألا أمرت بقتل هذا الوقح، فإنه تجاوز حدود الحشمة فى جوابه ؟!»

فأسكتهم عمرو، وقال لأركاديوس : «انى معجب بشجاعتك، ولم ألق بين جند الروم مثل هذه الجرأة .. ولذلك فإنى أبقى عليك بشرط أن تخلص لنا الخدمة وتكون واحدا منا» .

فقال اركاديوس : «أما ماترجوه من خيانتى لدولتى فبعيد المنال.. وتعجيلك بقتلى أجمل بك وبى» .

فمال عمرو الى معرفة حقيقة حاله، فأجل الأمر الى فرصة أخرى، وقال لوردان : «خذوه الى مكان أمين .. وليكن هناك حتى أطلبه» .. فساقوه الى احدى الخيام موثقا ..

★★★

أما أرمانوسة فإنها قد سرت بمقابلة أركاديوس وأعجبت بشهامته وبسالته، وما أن تنفست الصعداء بقدومه، حتى فوجئت بالحاكم مسرعا يطلب مقابلتها فأذنت له فدخل، وعلى وجهه امارات الانقباض والبغتة.. فلما قابلها حياها وهو مرتبك فسألته عن أمره ..

فقال : «يسوءونى أن أبلغك خبر قدوم العرب الينا بعدتهم ورجالهم وخيلهم، وقد تصاعد غبارهم حتى بلغ عنان السماء» .. فقالت وهى تخفى اضطرابها : «وهل وصل الجند؟..»

قال : «نعم ياسيدتى وقد جاءنى رسول منهم ومعه كتاب من أميرهم يطلب الينا أن نسلم المدينة» ..

فقال : «وماذا أجبته ؟..»

قال : «انتظر أمرك يامولاتى لأن المقوقس أوصانى ألا أفعل أمرا لا ابعد استشارتك.. وهأنذا بين يديك..»

فقالت : «وكيف نسلم لهم .. وهل بعثت الى والدى» .

قال : «بعثت اليه غير مرة منذ وصلوا إلى الفرما، وهو عالم بقدومهم .. ولا أدرى ماذا أعد لدفاعهم ؟..»

وكانت أرمانوسة مرتبكة الأفكار، فخاطبتها بربارة قائلة: «ألم يكن من الحكمة يامولاتى أن نخرج من هذه المدينة قبل وصول العرب ؟..»

قالت : «خطر لى ذلك من قبل .. ولكنى وثقت بعهود عمرو، وهو لاشك يحافظ على عهوده ولا ينوى لنا شرا» ..

اركاديوس والاسر

أما أركاديوس فقضى سحابة ذلك اليوم فى سجنه لم يذق طعاما، تتقاذفه الهواجس. وبات تلك الليلة لم تعرف عيناه النوم ولم يكد ينام حتى سمع أصوات المؤذنين وقد قام العرب للصلاة.. ثم جاءه بعضهم بالطعام فأبى أن يأكل، فعجبوا لكبر نفسه وأخبروا عمرا بذلك.. فبعث اليه وردان يرغبه فى الطعام ويستطلع حقيقة حاله.

فقال له وردان : «ألعلك لا تزال مصرا على عنادك وترجو النجاة من هذا الأسر؟» .

فقال أركاديوس: «قلت لك إنى لا أهاب الموت، وليس من عادة الروم أن يهابوه» .

فقال وردان : «والله لولا أن أميرنا قد أشفق عليك لقتلناك» .

قال : «لا حاجة بى الى شفقتكم .. فافعلوا ما أنتم فاعلون» .

فازداد وردان اعجابا به وترجح لديه انه من خاصة الروم، وجعل ينظر الى لباسه ويتأمله فرأى فى عنقه سلسلة من ذهب ثمينة لا يتأتى لمن كان فى مثل لباسه ان يتقلدها، فلاح له ان هذا الأسير من كبار القواد وقد تنكر.. فأراد أن يتحقق من ذلك، فمد يده إلى السلسلة وأراد انتزاعها ، وهم بأن يخاطب أركاديوس .. فنفر منه أركاديوس للحال وقال له : «قف بعيدا ولا تمد يدك إلى .. ولا شأن لك بثيابى، وانما أنتم تطلبون نفسى وهى بين أيديكم» .

فعجب وردان لتلك لجسارته وازداد رغبة فى أخذ السلسلة، وقال : «اخسأ يا أحمق ولا تكثر من الهذر والهذيان .. والله لو زدت كلمة واحدة لقطعت رأسك بهذا الحسام» .

فقال له : «كم قلت لك لا تهددنى بالموت، ولا تكثر من الكلام. واذا كانت شهامتكم تقضى لكم بقتل المغلولين فافعل . أما اذا كنتم لا تقبلون ذلك.. فالمبارزة بينى وبينكم، أخبر أميركم بذلك» .

فلما سمع وردان قوله هابه، وتذكر أن عمرا حظر قتله، فتركه وسار الى عمرو يخبره بما دار بينهما، ويحرضه على قتله .

أما أركاديوس فاشتد به الغيظ حتى دمعت عيناه.. فتذكر أنه فى الأسر ولا يليق به البكاء، فتجلد وجاءه وردان يأمره بالذهاب الى الأمير ..

فسار يجر قيوده وهو لغيظه لا يرى أحدا فى طريقه، وأما العرب

فإنهم خرجوا من الخيام ليشاهدوا ماسمعوا به من جرأته حتى وصل الى خيمة الأمير، فدخلها وعمرو جالس فى صدرها بلباسه وعمامته وامراؤه بين يديه، والى جانبه رجل بلباس غير لباس العرب.. ولكنه لشدة انفعاله لم ينتبه له.. فقال عمرو : «قد بلغنا من وردان أنك تتطاول علينا وأنت أسير بين أيدينا» .

فقال أركاديوس : «ليس الأسر عارا على الرجال، وإنما العار ان تقيدونى وأنا واحد وأنتم ألوف ..» .

فقال عمرو : «حلوا قيوده لنرى ماذا يكون من أمره ..» .

فحلوها ، فقال عمرو : «ها قد حللنا قيودك.. فكيف ترى نفسك؟!..» .

قال : «أرى أنكم اذا أنصفتمونى بارزنى واحد من رجالكم.. فإن انتصر علىّ، فدمى مباح لكم» .

فقال عمرو : «ولكننا لا نبارز شخصا أعزل مثلك.. وإنما نبارز كبار القواد..» .

فود أركاديوس لو يعرفهم منزلته، ولكنهم أمسك عن ذلك ، وقال : «ان ساحة الحرب تبين لكم القائد من الرجل الأعزل..» .

فازداد عمرو رغبة فى معرفة حاله، وقال له : «أصدقنا الخبر يارجل، ولك منا الإنصاف..» .

قال : «وأى خبر تريدون منى ؟..» .

قال : «قل لنا من أنت .. اننا لا نظن ان عامة عسكر الروم من تظهر منه هذه الجرأة..» .

قال : «ان بين عامة عسكرنا رجالا أصعب مراسا منى وأكثر جرأة، ولعلكم تحسبوننا مثل من لاقيتم من جند الشام..» .

فازداد عمر اعجابا به ، وندم على حل قيوده فأمر بتقييده..

وقال له : «حسبنا ان حل قيودك يقلل من وقاحتك، فتصارحنا بحقيقة أمرك.. فاذا بك لا تزال مصرا على عنادك..» .

وبينما كانوا يكبلونه بالأغلال، تقدم وردان الى عمرو وهمس فى أذنه مشيرا الى السلسلة الذهبية فى عنقه، وقال : «لعلك اذا استخرجت هذه السلسلة نستطيع أن نستطلع شيئاً من خبره» .

فأمر عمرو وردان ان ينتزعها، وكان أركاديوس قد شد وثاقه، فلم يستطع دفاعا.. ولكنه حاول منعه، فاجتمع عليه بعض من فى الخيمة فانتزعوها من عنقه ودفعوها إلى عمرو.. وحملوا أركاديوس إلى سجنه، فسار وهو لا يعى شيئا لشدة تأثره.. وود لو قطع عنقه قبل أن تؤخذ منه تلك السلسل .

أما عمرو ، فتناول تلك السلسلة وفيها الصليب المرصع، وجعل يتأمله ثم قال : «انه شبيه بكثير مما وجدناه بين أسلاب هؤلاء الروم فى الشام وبيت المقدس.. ولكننى قلما رأيت مثل لمعانه وحجارته» ..

فابتدره وردان قائلا : «ذلك ماحملنى على الشك بأن الرجل من كبار القواد» ، فالتفت عمرو إلى الرجل الذى كان إلى جانبه وهو زياد، وقال : «ماظنك يازياد بهذا الصليب، فإنك أكثر منا معرفة بأحوال الروم ولباسهم» .

وكان زياد قد سار برسالة عمرو الى المقوقس بالأمان للقبط، فوجده فى الحصن وسمع أهل الحصن يتحدثون بغياب أركاديوس على حين غفلة. وكان قد شاهده مرارا فى الأسكندرية وعرفه، لما رآه عند الروم. فلبث صامتا، فلما ناوله عمرو السلسلة أخذها ونظر الى الصليب وقلبه بين يديه، فرأى على ظهره كتابة بالقبطية، فقرأها فإذا هى اسم ارمانوسة، فكتم ذلك ثم قال : «هل يأذن لى مولاى أن استطلع حقيقة هذا الرجل بنفسى لأنى أؤيد وردان فيما رآه؟» .

فقال عمرو : «افعل مابدا لك» فحمل زياد السلسلة وسار توا إلى محبس أركاديوس، فإذا هو غارق فى بحار من الهواجس، وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما. ولما رأى زياد داخلا أجفل، ولكنه تجلد وصبر ليرى مايبدو منه .

أما زياد فجلس أمامه، وقال له : «قد بعثنى مولاى عمرو بن العاص لأسألك أمرا .. فهل تجيبنى عليه؟..»

قال : «لعلى أجيبك» .

قال : «من أين لك هذه السلسلة؟ (وأراه إياها) .. فلما رأى اركاديوس السلسلة فى يده اقشعر جسمه وارتعدت فرائصه وكادت الدموع تترقرق فى عينيه، ولكنه عزم على التجلد والحزم فقال : «انها وصلت الى بطريق الاتفاق» .

قال : «وهل انت من جند الروم أم الأقباط ؟»

قال : «بل من جند الروم!»

قال : «ولعلك من فرقة القائد أركاديوس» .

فلما سمع اسمه بأذنه علت وجهه مظاهر البغتة ، وقال : «ربما كنت منهم.. ولكن ما أدراك بجنود الروم وأقسامها؟.. ألعلك من سكان هذه البلاد؟..»

قال : «كنت مقيما هنا.. ولكن هل تعرف اركاديوس جيدا؟» .

فعجب أركاديوس لكثرة أسئلته عن أركاديوس ، وخاف أن يكون قد عرفه فيقع فى الخطر العظيم، فقال : «لابد من أنى أعرفه .. ولكننى أسألك امرا واحدا.. اعطنى هذه السلسلة، وافعل بى بعد ذلك ما تريد.. »

فقال زياد : «لست مأذونا بذلك، وقد يهمنى من أمر هذه السلسلة أكثر مما يهمك .. فإنها على ما يظهر تخص ارمانوسة بنت المقوقس ، وأنت تقول انك من بعض الجند فكيف وصلت اليك؟»

فأنكر اركاديوس عليه ذلك، قائلا : «لا أظنها تخصها، ولكننى مع ذلك لا أدرى الا أنها وصلت الىّ بطريق الاتفاق» .

فقال زياد : «لقد عجبت لترددك فى الكلام» . فارتبك أركاديوس فى أمره، ولم يعد يستطيع التخلص من هذه الورطة فسكت ..

فقال له زياد « لماذا لا تفصح ؟ .. قل .. أجب » ..

فرفع أركاديوس عند ذلك نظره إليه ، وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وقال : « لا أجيبك إلا متى أخبرتنى عن حقيقة حالك ومن أنت» .

قال : « لا تظن أن كتمان أمرك يخفى عنا حقيقتك ، فقد عرفناك .. وأنا أول من عرفك» .

قال وقد حاول التجاهل : «وكيف لاتعرفنى» .

فضحك زياد وقال : «إذا أصررت على الإنكار فإن ذنبك يزداد ثقلا » .

فقال أركاديوس : « قل من أنا إذن ؟!» .

قال : « أنت أركاديوس بن الاعيرج» .

فبغت أركاديوس وخشى العاقبة ، ولكنه ابتسم مظهرا الاستخفاف بهذا القول وقال : « من أين لسيدى أركاديوس أن يأتى إلى هذا المكان، وهو محاط بالأبطال ، لايخرج من معسكره إلا محاطا بالمئات والألوف من الجند .. فياحبذا لو كنت إياه ، ولو آل ذلك إلى قتلى الآن» .

فقال زياد وقد ازداد تحققا من ظنه ، لما ظهر على وجه أركاديوس من مظاهر البغتة : « دع عنك هذه الخزعبلات .. واعلم أن اركاديوس قد خرج مؤخرا من حصن بابل منفردا، وترك الناس هناك يفتشون عنه » .

فازداد ارتباك اركاديوس وفكر فى الأمر قليلا ثم قال : « أستحلفك بمن تعبد أن تخبرنى من أنت » .

قال : « ما شأنك أنت ومن أعبد ؟» .

قال : « أسمع إن العرب أهل عهد وذمام ، فأنا لا أبوح لك بحقيقة أمرى إلا إذا عاهدتنى على أمر أسألك اياه الآن» .

قال : « لعلى إذا عاهدتك على أمر لا أستطيع القيام به .. وأنا مأمور» .

قال : « أعلم ذلك وأنا لن أطلب منك ما يخالف إرادة أميرك ، ولعله إذا عرف من أنا أراد قتلى وما أنا خائف من الموت» .

قال : « وماذا إذن ؟» .

قال : « عاهدنى أن تفعل ما أقوله لك ، ولو بعد مماتى» .

فقال : « أعاهدك بشرف العرب وشهامتهم إنى أفعل ما تريده غير الدفاع عن قتلك .. قل ما بدا لك » .

فاعتدل عند ذلك أركاديوس جالسا وقال : « أما وقد عاهدتنى، فإنى أعترف لك بأنى أركاديوس بن الاعيرج .. فليفعل بى أميركم ما شاء، فأتوسل إليك أن تحفظ هذه السلسلة وهذا الصليب حتى إذا قضى على، تدفعهما إلى صاحبتهما ارمانوسة سرا ، وتقول لها إن اركاديوس قد مات شهيدا » .

فعندما سمع زياد كلامه ، تعجب عجبا لا مزيد عليه ولم يفهم معنى هذه الرسالة، مع علمه أن بين القبط والروم عداء شديدا ، وكيف وصل هذا الصليب إليه وهو لأرمانوسة ، فأراد أن يقف على الحقيقة ، فقال له : « ولكن ما العلاقة بينك وبينها..؟» .

قال : « لكنى أريد هذا ليس لك ولا هو من شأنك ، فقد عاهدتنى أن تفعل ما أطلبه إليك وهذا ما أرجوه منك» .

قال : « لكنى أريد الإفصاح ، لعلى أكون قادرا على القيام بما هو أكثر ، وربما استطعت انقاذك من الموت» .

قال : « دع عنك هذه الوعود ، وافعل ما أقوله لك » .

قال : « إذا كنت راضيا بالموت .. ألا ترضى بإفشاء سرك ؟» .

قال : « إن الموت أسهل على من إفشاء السر » .

فقال زياد : « أستحلفك بحياة صاحبة هذا الصليب إذا كنت تحبها أن تخبرنى الحقيقة ، ولا تخف فإن تصريحك أنفع لك» .

فأجفل أركاديوس عند ذلك وقال : « أراك كثير الميل إلى معرفة حالى مع ارمانوسة ، وتستحلفنى كأنك تظن أنى أحبها » .

قـال : «وهل فى الحب عـار ؟ .. فـإذا كنت لا تود الافـشـاء خـوفـا من غـضب والدك ، فـثـق أنى أكـتم سـرك.. فـقل ولا تخف.. » .

فقال له أركاديوس : « فأخبرنى من أنت؟.. » .

فقال : « إنى لست من جند العرب ..فقل ولا تخف؟.. » .

ففكر اركاديوس، قال : « أما إذا كانت الحال كذلك وقد أردت بى خيرا ، فأخبرك إنى أحب ارمانوسة وهى تحبنى ، وقد أخذت هذا الصليب منهـا تذكـارا لا يعلم به أحد سواك الآن ، وحبى لهـا سر لايعلم به أحد» .

قال : « أما وقد علمت الآن حقـيقـة أمرك ، فثق بالنجاة على يدى بإذن الله ، وهأنذا عائد إلى الأمير .. » .

فناداه أركـاديوس وقد توسم فيه الخير ، وقال له : « لقـد وثقت بك ثقة تامة.. فابذل جهدك واحفظ ذلك سرا .. » .

فعاد زياد إلى الأمير عمرو وقد صمم على بذل الجهد فى إنقاذه، ولكنه لم يصل إلا وقد ركب عمرو وصاح فى الناس : «النفير النفير ..» وأخذ الجند فى التـأهب لمهـاجـمـة المدينة ، فلم يملك فـرصـة لمخاطبته بشأن أركاديوس .. فلاح له أنه ربما استطاع اطلاق سراحه ، والناس فى شاغل عنه بالحرب ..

فتح بلبيس

أما أرمانوسة ، فكانت فى اطمئنان بخصوص أركاديوس ، لظنها أنه سار إلى الحصن ..ولكنهـا أصبحت فى خوف على نفسـهـا من العرب ، على أن ما علمته من مكاتبة والدها للعرب وتأمينهم إياها كان يخفف من خوفها » .

أمـا حـاكم بلبيس فأخذ فى الاستـعـداد للدفـاع ، فـأعد الجند وفرقهم على الأسوار فرقا ..

وأطل من أعلى السور ينظر إلى العرب ، فرآهم قد ركبوا خيولهم

واصطفوا صفوفا والاعلام تخفق فوق رؤوسهم . وتقدم فارس منهم يطلب المبارزة ، وظل يجول بجواده وهو ينادى : «المبارزة .. المبارزة» ، إلى وقت الظهـيـرة ، فلم يخرج إليـه أحـد من الأسوار ، فـعـاد إلى معسكره .. فاجتمع الأمراء وتفاوضوا فى الأمر فقال لهم عمرو : «ماعلينا إلا مهاجمة الأسوار لأن القوم قد وقع الرعب فى قلوبهم ، فسارعوهم قبل أن تأتيهم النجدة من حصن بابل، فيمتنعوا علينا .. فتقدم العرب إلى الأسوار، وتسلقوها » .

أما أرمانوسة فكانت تنظر من نافذة قصرها إلى العرب وحربهم ، فلما رأتهم يتسلقون الأسوار اضطرب فؤادها وخافت خوفا عظيما ، ونادت بربارة فجاءت مسرعة وهى تقول : « لاتخافى يا سيدتى ... إن لنا على الأمير عهدا كما تعلمين....» .

وفيما هما فى ذلك ، سمعتا ضجيج أهل المدينة وعلمتا أن العرب دخلوا بلبيس ، وجاء واحد من جنود العرب يطرق باب القصر ، فلم يتجاسر أحد من الخدم أن يفتح له خوفا على أرمانوسة فسمعوه يقول: «افتحوا لا تخافوا إنى رسول من الأمير عمرو إلى السيدة أرمانوسة» .

فلم يثقوا بقوله، ولما أكثر من الطلب أطلت بربارة من نافذة فوق الباب وسألته عن عزمه ، فأجابها بالقبطية أنه رسول من عمرو .. فعجبت للباسه العربى وكلامه القبطى فقالت : « ماذا تريد ؟» فقال : «افتحوا .. إنى أريد مخاطبة السيدة ارمانوسة فى أمر ذى بال من الأمير عمرو» ، فلم تصدقه ، فأخرج من جيبه السلسلة وفيها الصليب وأشار بها إليها ، فلما رأت بربارة السلسلة عرفتها .. فأسرعت إلى سيدتها وأعلمتها بما رأته فعجبت لأمرها، وقالت : « اسرعى فافتحى له» ، فأمرت الخدم ففتحوا له الباب ، فدخل مسرعا إلى أرمانوسة وكانت فى خوف شديد .. فلما رأته عرفت أنه الرجل الذى شاهدته مع مرقس يوم جاءها إلى الخيمة على عهد يوقنا، فقال لها : « لاتخافى يامولاتى .. إن الأمير عمرا قد أرسلنى لأطمئنك بأنه لن

يمسك شر وأن الأمان عليك ، وعلى كل من هو فى قصرك ومن تشائين غيرهم» .

فأسرعت إليه وتناولت السلسلة من يده، وقالت : « من أين لك هذه السلسلة؟ وأين صاحبها ؟ ..» .

فقال لها : « لاتجزعى يا سيدتى إن صاحبها بخير ، وهو أركاديوس بن الاعيرج، وقد عرفت قصته.. وسأقص عليك خبره» .

وهمس فى أذنها : « أنه أسير فى معسكر العرب ولا خوف عليه لأنهم لم يعرفوه، سوف أسعى فى إطلاقه» .

فقالت وقد تعجبت غاية العجب واضطربت جوارحها : « قل الآن وافصح كيف أسر اركاديوس ؟» .

فقال : «قبل أن أقص الخبر ، خذوا هذا العلم وانصبوه على باب القصر .. ليعلم الجند أنكم فى ذمتنا » .

بعد ذلك قص عليهما زياد الأمر، وكيف أسر أركاديوس، ثم خرج مسرعاً إلى معسكر العرب ، والمعسكر يكاد يكون خاليا لاشتغال الرجال بالفتح . وقصد محبس أركاديوس ، وذهل ذهولا عظيما لما دخل الخيمة ولم ير فيها أحدا .. فأخذ يتأمل ما فيها ، لعله يستطلع شيئا عنه ، فرأى بعض الأمراس من الشعر مقطعة بغير آلة حادة وعلى بعضها أثر الدم ، فظن أن بعض العرب ضربوه وهو موثق أو ربما قتلوه ، ولكنه لم ير جثته ولا عرف بخبرها ، فوقع فى حيرة ولم لايدرى ماذا يعمل..

مرقس فى الحصن

تركنا الاعيرج فى غرفته بعد ذهاب أركاديوس ، وقد حمى غضبه لما ظنه فى المقوقس من الخيانة ، وود لو أنه يستدعيه إليه ويوبخه... ولكنه آثر السكوت إلى أن تنقضى الحرب ، فسكت وقد أضمر الشر.

وفى صبح اليوم التالى ، جاءته الجواسيس ينبئونه بقدوم العرب إلى بلبيس بعد أن فتحوا الفرما ، فاضطرب لذلك الخبر .. وبعث إلى

أركاديوس ليخاطبه بشأنهم وما يجريه من الاستعداد لدفعهم ، فقيل له إن اركاديوس ليس فى قلعته ، فاستقصى خبره فعلم أنه خرج فى مساء أمس ولم يعد بعد . فاشتغل باله عليه وعجب لذهابه بغير استئذان وهم في حرب ، فبعث إلى المقوقس وتفاوضا فيما جاءهم من الأنباء ، وسأله عن أركاديوس فقال إنه لم يره .

ولم تمض بضع ساعات حتى شاع خبر غياب أركاديوس فى سائر أنحاء الحصن ، وأخذ الجند والقواد وغيرهم يتساءلون عنه .. فلم ينبئهم بخبره أحد ، فعظم ذلك على الاعيرج وخارت قواه لأنه كان يعتمد على أركاديوس فى أمر الحصن والاستحكامات وما يتعلق بها، فأرسل جماعة من خاصته يفتشون عنه فى الأماكن المجاورة، وأمرهم أن يستقصوا خبره ما استطاعوا .. فتفرقوا فى ضواحى الحصن ، وأوغل بعضهم شرقا إلى جوار بلبيس فعثروا على مرقس واقفا ومعه جواد أركاديوس وسيفه ودرعه .. وقد كان هناك ينتظر عودة أركاديوس من عند أرمانوسة، فأمسكوه وسألوه عن أمره وعن أركاديوس . فقال إنه لايعلم عنه شيئا ، فجاءوا به إلى الاعيرج ... فلما رآه الاعيرج ومعه فرس ابنه وعدته وسلاحه وثيابه، صاح به : «ويلك ... أين اركاديوس ؟» . وهدده بالقتل لعله يخبره بخبره، فلم يزد على قوله أنه كان مارا بجوار بلبيس فرأى الجواد والعدة ولايعرف شيئا عن صاحبهما .

وبعث الأعيرج إلى المقوقس، فحضر، فسأله عن الرجل فعرف أنه من خدم ابنه ارسطوليس ، وسأله فأصر على الانكار .. ولكنهم رجحوا الشبهة عليه وارتابوا فى أمره وخصوصا لأنهم شاهدوا سيف اركاديوس معه. فاشتد غضب الاعيرج وتراكمت عليه الظنون وقال للمقوقس : «إن مرقس هذا من رجالك وقد وجدنا جواد ولدى وسلاحه وثيابه معه ، فإذا كان قد قتله فدم الأقباط كافة لايكفينى فداء عنه » .

فعجب المقوقس لذلك الحادث الغريب ، واستأذن الأعيرج فى استجواب الشاب على انفراد .. فخلا به هو وارسطوليس ، وبذلا الجهد فى الوصول إلى الحقيقة ، فلم يسمعا منه خبرا عن أركاديوس قط ، فهدداه بالقتل ، فقال : « اقتلانى أو افعلا بى ما شئتما » .

فأمسكه ارسطوليس وقال له : « أما أرسلتك بكتاب البطريرك إلى والدى ، فاحك لنا عما تم لك بعد ذهابك » ، فحكى لهم من الحكاية ما لايلقى شبهة على أركاديوس ، وقد أصر فى نفسه أن يحافظ على سر أركاديوس ولو آل الأمر إلى قتله ، لأنه كان يعلم بتخوفه من أبيه بشأن أرمانوسة ، وكان يشعر بعظم فضله عليه . فلم تسمح له شهامته بالاقرار ، خشية الإيقاع به .. فبقى مصرا ، وعبثا حاول المقوقس وأرسطوليس استدراجه إلى التصريح بالحقيقة .

ولم يزد مرقس عن قوله : « لا أعرف شيئا عنه ، ولا أعلم أن هذا الفرس وتلك الثياب له ... ولكنى لا أرى وجها للظن فى أنه قتل ، فهو لم يقتل » ..

فأمر المقوقس، فأخرجوه مغلولا إلى المخفر .. وانفرد المقوقس بابنه يتناقشان فى الأمر، وفيما هما فى الحديث ، جاءهما رسول الأعيرج يطلبهما إليه، فذهبا فى الحال فرأياه يتقد غيظا.. فلما دخلا صاح وهو لايدرى ماذا يقول : « أعلم يا ابن قرقت (لقب المقوقس) إنى لا أقتص لدم ابنى إلا منك ، والقطرة الواحدة منه تساوى أهل مصر شمالها وجنوبها » .

فجعل المقوقس يلطف غضبه قائلا : « لاتتعجل بالأمر .. فإن الرجل يقول إنه لايعرف شيئا عنه .. ومع ذلك فإنى أضمن لك حياة أركاديوس، وها أنذا وابنى بين يديك... لا نخرج من الحصن إلا بعد عودته سالما . ومن أدرانا بحاله ، فلعله عند العرب أو لعله غائباً فى مهمة .. على أنى لن أكف عن سؤال الرجل حتى نعلم منه الحقيقة.. » .

ففكر الأعيرج برهة ثم نظر إلى المقوقس وقال : «أقسم بشرف الروم ورأس الامبراطور هرقل أنكم إذا لم تأتوا بولدى أركاديوس حيا، لأمزجن دماءكم بمياه النيل» .

فخفق قلب المقوقس لذلك وخشى العاقبة ، لعلمه أنه فى الواقع يخادع الروم وقال فى نفسه : « إن العرب لايلبثون أن يكونوا هنا وهم ظافرون لا محالة ، فإذا غلبوا فهم يرفعون عنا هذه التبعة ...» .

فقال له : « لا أنكر عليك الحق فى القلق على أركاديوس ، وإن غيابه ليعز علينا جميعا لأنه من نخبة رجالنا ... بل هو عمدتنا فى حربنا مع هؤلاء العرب ، وزد على ذلك أننا فى حالة حرب لا تأذن لنا بالانقسام فيما بيننا . ولا خفى إلا وسيظهر » .

فقال : « سأصبر بضعة أيام وأنتما لاتخرجان من الحصن ، ولكنكما ترسلان العيون والأرصاد للتفتيش عنه» .

ثم تركهما وخرج إلى الحصون ، وأوصى قواده أن يمنعوا المقوقس وابنه من الخروج لأى سبب كان ..

أما مرقس فلبث فى سجنه يفكر فى حاله ، وقد تحير فى أمره لايدرى أيبقى على الكتمان فيعرض نفسه للخطر ... أم يبوح بحقيقة الحال فيعرض أركاديوس لغضب والده .. وفيما هو يفكر جاءه ارسطوليس وعلى وجهه ملامح الكآبة . وقال: «تؤكد لنا بقاء أركاديوس حيا ، ثم تكتم عنا حقيقة حاله .. والاعيرج مصر على طلب ابنه منا وقد اتهمنا بقتله ، وأنت تعلم حالنا مع هؤلاء الروم . وقد بذلنا الجهد حتى لاتظهر لهم دخيلتنا ، أفتفتح هذا الباب للإيقاع بنا ؟ » .

ففكر مرقس برهة ثم قال : «وكيف يتهمكم بقتله وقد خرج وأنتم لاتعلمون .. فما شأنكم أنتم به ؟ ... » .

قال : « ومن يسمع كلامنا هذا ، والأعيرج لو عرض شكواه هذه لديوان القسطنطينية لصادف أذنا صاغية وعادت العاقبة علينا» .

فصمت مرقس مدة ، ثم قال : « وما رأيك إذا جاءهم منه كتاب بختمه يخبرهم ببقائه حيا؟، فهل يكفون عن اتهامكم؟» .

قال : «لاشك فى ذلك ولكن أنى لنا هذا ؟ » .

قال : « إذا أذنتم لى بالخروج ، أتيتكم بذلك الكتاب .. » .

فعجب أرسطوليس وقال : « أتقدر على ذلك يا مرقس ؟ .. » .

قال : « نعم يا سيدى ، على شرط ألا تسألونى عن كيفية استحضار الكتاب ، ولا تقولوا للأعيرج إنى ذهبت لآتى به .. بل قولوا له إنى ذاهب للتفتيش عنه كما ذهب غيرى » .

فبهت أرسطوليس برهة، ثم قال: « تمهل ريثما أخبر والدى» .

ثم خرج إلى والده فإذا هو مضطرب الفكر ، لايستطيع الكلام لفرط ما به من الغيظ ، فلما دخل عليه حياه، وقص عليه الخبر.

فقال : « أخشى يا أرسطوليس أن يكون عازما على اتخاذ خروجه هذا حيلة للفرار؟» .

قال : « لا حيلة لنا فيه وهو مصر على كتمان الحقيقة ، فأرى أن نتحمل التبعة فى إرساله لعله ينفعنا » .

ثم ذهبا إلى الاعيرج وقالا له : « إن مرقس هذا أقدر الناس على التفتيش عن ولدك ، فلعلنا إذا أرسلناه للبحث عنه أن يقف على حقيقة حاله» .

فقال : « وكيف نطلق سراحه وهو الذى قتله أو علم بقتله » .

فقال المقوقس : « يظهر أن الرجل برىء من القتل ، ونرى أن نرسله فى هذه المهمة كما أرسلنا سواه فلعله يعود بالخبر اليقين » .

فقال الأعيرج : « فليذهب ولكم التبعة عليكما .. » .

فقبلا التبعة وخرجا إلى مرقس فأطلقا سراحه .. وأوصياه ألا يطيل الغيبة ، فودعهما وخرج ..

النجاة من الأسر

أما ما كان من أمر زياد ، فإنه لما افتقد أركاديوس فى

محبسه ولم يره ولا عثر عليه فى سائر جهات المعسكر ، أسرع بالعودة إلى بلبيس ليخبر أرمانوسة بذلك ..

وكانت أرمانوسة فى قصرها مع بربارة وسائر الخدم ، وقد أصبحت على مثل الجمر فى انتظار زياد . فلما أبطأ عليها أخذت تندب سوء حظها .

وفيما هى في ذلك ، سمعت غوغاء فى الدار ، ثم جاء الخدم يخبرون ارمانوسة أن رجلا رومانيا بالباب ، فخرجت بربارة إليه فإذا هو أركاديوس يقرع الباب وعليه مظاهر البغتة ، وعلى ساقه آثار الدم .. فلما رآها صاح بها: « أين ارمانوسة... ؟ هل هى بخير؟...» .

قالت : « نعم بخير» .. فدخل مسرعا وهو لايصدق أنه سيراها على قيد الحياة ، فلما وقع نظره عليها قال : « الحمد لله على بقائك حية» فقالت : « ما خبرك يا حبيبى؟...» «كيف تخلصت من الأسر ؟ » .

قال : «تخلصت منه بالرغم من الحبال التى شدوا بها ذراعى ، وما ساعدنى على تمزيقها إلا خوفى عليك .. فقد كنت فى الخيمة بعد ذهاب زياد ومعه الصليب ليوصله إليك ، ثم سمعت ضرب الطبول ونفخ الأبواق واهتمام العرب بالهجوم على بلبيس .. فوقفت انتظر ما يكون من أمرهم ، فإذا بهم قد تسلقوا الأسوار ودخلوا المدينة ، فأيقنت أنهم سيصيبونك بسوء .. فاتقد جسمى غيرة حتى غاب رشدى ، وهممت بالمجىء للدفاع عنك لعلى أنقذك أو أقتل معك ، فحاولت حل الوثاق فلم أستطع لأنه كان أمراسا مجدولة من الشعر ، فأصبحت حائرا كالمجنون .... وأخيرا أسندت ظهرى إلى عمود الخيمة ، وجعلت أحك الحبل بالعمود إلى اليمين وإلى اليسار فشعرت بنتوء فى العمود ، فجعلت أمرر الحبل عليه كأنى أحزه به حزا ، وقد شعرت بقوة غريبة ... فكنت أحك ظهرى بالعمود صاعدا نازلا ، حتى غاص الحبل فى لحمى دون أن أشعر ، وأخيرا انقطع الحبل بعون الله وانحل وثاق رجلى.» .

فأعجبت ارمانوسة بشهامته وتناثرت الدموع من عينيها، ثم فقال أركاديوس : « وما هذا العلم الذى أراه على باب القصر ؟ ...» .

قالت : «هو علم العرب بعثوه لحمايتنا» .

فجلس أركاديوس ليستريح ، ثم أطل من النافذة .. فرأى العرب قد ملأوا المدينة، فجعل يتململ ويتأسف على ما أصابه العرب منهم، فقالت أرمانوسة : « ما بالك يا حبيبى تتململ ؟» ، قال : « أتململ أسفا على ما حل بجندنا. ألا ترين أن العرب ينهبون المدينة ويقتلون حاميتنا ؟ .. ولكن مهلا سوف يلقون منا فى حصن بابل ما يعيدهم على أعقابهم » .

ثم قال : « ألم ترى مرقس يا أرمانوسة ؟» .

قالت : « لا يا حبيبى لم أره ..» .

فقال : « لست أدرى كيف ذهب مرقس والجواد ، وأخشى أن يكون قد قبض عليه رجال والدى وساقوه إلى الحصن واتهموه بقتلى.. وربما قتلوه ظنا منهم أنه قتلنى» .

وقضوا بقية ذلك اليوم وباب القصر موصد ، وهم يسمعون الاستجارة والبكاء والعويل .. وقلوبهم تتمزق حزنا على أهل بلبيس لما أصابهم. وفى المساء جاءهم زياد ، فلما علم بنجاة أركاديوس عجب لشهامة العرب . وكيف أنهم خصوا قصر ارمانوسة بالحماية، وداخله ريب فى سبب حمايته .. ولكن فرحه بنجاة اركاديوس هون عليه .

وباتوا تلك الليلة .... فلما كان الغد ، جاء بعض العرب يقودون رجلا موثقا ، فلما دخلوا به القصر إذا هو مرقس ، فسألوا أرمانوسة هل هو حقيقة من خدمها لأنهم أمسكوه عند الأسوار ، وادعى أنه من خدم السيدة أرمانوسة ، فقالت : « نعم ...» ورحبوا به . ولما شاهد اركاديوس هناك ، فرح فرحا عظيما وقص عليه حكايته ، وأخبر أركاديوس إن المقوقس وابنه متهمان بقتله ، وأنه إذا لم يعجل بالمسير سجنهما الاعيرج أو قتلهما ..

فصاحت أرمانوسة : « ويلاه يا أركاديوس .. إن والدى وأخى معرضان للموت وحياتهما فى يدك» .

فقال : « لاتخافى يا أرمانوسة، إنى متكفل بحماية كل من ينتمى إليك. ولولا خوفى عليك لأسرعت حالا إلى الحصن ودفعت هذه التهمة عنهما ، ولكن يجب أن أبقى هنا لأرى ما يؤول إليه أمرك» ..

قالت : « ولا أنا أريد أن تذهب إلى الحصن الآن ، ولا أن تحضر المعارك .. ولكنى لا أريد أن يهلك والدى وأخى ، فإن الروم لم يخرج منهم شهم غير أركاديوس حبيبى» .

فقال أركاديوس لمرقس : « وكيف حالهم فى الحصن ؟» .

قال : « فارقت والدك شديد القلق عليك ، وقد بث العيون والأرصاد ، وبعث الرسل للتفتيش عنك . ولما لم يعثروا عليك شددوا النكير على سيدى المقوقس وابنه ارسطوليس ، وهو ينوى الإيقاع بهما إذا لم يعلم بخبرك ... وأعترف لك أنى جئت على نية أن أزور كتابا عن لسانك وأختمه بخاتمك الذى عرفت منك أنه مع سيدتى أرمانوسة ، وأذهب لوالدك بالكتاب متضمنا أنك على قيد الحياة ، وأنك آت قريبا....» .

فقال اركاديوس: « لقد أصبت يا مرقس، ونعم الرأى رأيك» ..

وكتب إلى والده يقول ما معناه:

« والدى المحترم ..

لا ألومكم إذا انشغل بالكم على لخروجى من الحصن وأنتم لاتعلمون ، وسأحيطكم علما بما حملنى على ذلك . وأما الآن فإنى أكتب إليكم هذه السطور لأطمئنكم بوجودى حيا فى بلبيس بعد أن أسرنى العرب ونجوت من الأسر ، وقد عرفت من أحوال هؤلاء العرب ما سأقصه عليكم وفيه قوة لنا . ولولا جراح أصابتنى فى ذراعى الآن

لجئت إليكم بدل هذا الكتاب ، ولكنى سأسرع حالما أستطيع الركوب .. وذلك قريبا إن شاء الله».

كَتَب ذلك وختمه بخاتمه، فأخذ مرقس الكتاب وخرج مهرولاً .

ولم تمض هنيهة، إلا وسمعوا طرقاً على باب القصر وعلت الضوضاء ، وإذا بالخدم يقولون إن أمير العرب قد جاء يريد الدخول، فقالت أرمانوسة لأركاديوس : « الأولى أن تختبىء ، لئلا يراك فيعرفك» فاختبأ في إحدى غرف القصر .. وخرجت بربارة لاستقبال الأمير ومن معه، وأسرعت بهم إلى غرفة كبيرة جلسوا فيها . فقال وردان : « إن الأمير قد جاء بنفسه ليطمئن السيدة أرمانوسة ويخبرها ألا خوف عليها ولا على أحد ممن هم فى منزلها».

فقالت بربارة : « لا نستطيع أن نفى بواجب الشكر لك أيها الأمير ، لأنك حميتنا من عواقب الحرب » .

ثم خرجت ونادت سيدتها فحضرت ، وقد لبست أحسن ما لديها من الثياب الفاخرة ، وعلا وجهها احمرار الحياء فزادها جمالا .. فجلست على مقعد هناك ، وخاطبت عمراً قائلة : « إن ما أوليتنا من الفضل نعجز عن شكرك عليه » .

فأجابها عمرو وهو مطرق : « إن ذلك من مستلزمات الشهامة عندنا ، وقد عاهدنا والدك على حمايتك ، ولكن ساءنى كثيرا ما ارتكبه ذلك الخائن يوقنا من خيانتك ، وإذا أدركناه عاقبناه على ذلك شر عقاب .. أما الآن فاعلمى أنك فى ذمتنا ، ولا يليق بنا أن نغدر بك .. فإذا شئت البقاء هنا بقيت ، وإذا شئت الذهاب إلى والدك بعثناك مع حراس يوصلونك إلى حيث تريدين .. فاختارى» .

فأطرقت ارمانوسة ، ثم قالت : « أفضل الذهاب إلى والدى إذا أذن الأمير » .

قال : « لك ذلك» وكان يخاطبها بواسطة وردان ، ثم قال لوردان: « هيىء لها جماعة يرافقونها إلى حيث تريد، وكن أنت مشرفا عليهم» .. ثم قام مودعا وخرج ..

فسارت أرمانوسة فرحة إلى أركاديوس وأخبرته بما كان فقال : « إذن أسير أنا برفقتكم إلى قرب الحصن ، ثم انفرد وأدخل الحصن وأنت تذهبين إلى منف » .

العودة إلى منف

أما أهل الحصن فإنهم لبثوا فى انتظار مرقس ، ثم سمعوا بسقوط بلبيس فتكدر المقوقس كثيرا وخاف على ابنته ، ولكنه كان واثقا بما لديه من العهود . وفي اليوم التالى وصل مرقس بكتاب أركاديوس وسلمه إلى والده ، فقرأه واطمأن قلبه على ولده .

ولما خلا مرقس بالمقوقس ، أخبره بما أتاه عمرو من الجميل فى شأن ابنته ، وأنها ستكون فى منف بعد قليل .. فبعث بعضا من رجاله لاستقبالها ومرافقتها إلى قصرها .

ولبث الأعيرج يوما ثانيا فى انتظار أركاديوس حتى جاءه ، فدخل عليه فقبله ورحب به وسأله عن سبب ذهابه .

فقال : « أنت تعلم يا سيدى بغيرتى على شرف الروم ، وقد رأيت هؤلاء الجواسيس يأتوننا بالأخبار المتناقضة .. فلم نفهم منهم حقيقة قوة العرب ، فحدثتنى نفسى أن أذهب منفردا لاستطلاع حالهم وأنا أعلم أنك لاتأذن لى خوفا على .. فخرجت على حين غفلة وأنا أتوقع أن لا أغيب إلا يوما واحدا ، عالما أنى متى عدت وأخبرتك بما استطلعته من أخبارهم تعفو عن جسارتى هذه .

ودخلت المدينة وعلمت ما استطعت علمه ، فإذا هم رجال لايزيد عددهم على الأربعة آلاف ... ولكنهم والحق يقال يهجمون على الأسوار هجوم الأسود ، ويزأرون كأنهم ذاهبون إلى مغنم .. ولكننا بعون الله سنبدد شملهم أمام هذا الحصن» ..

فقال الاعيرج : « بورك فيك إنها شجاعة فائقة الحد يا ولدى، لأنك عرضت نفسك لخطر شديد، وعلينا الآن الاستعداد والتحصين ، فإن العرب لا يلبثون أن يقدموا إلى الحصن» .. وأوصى ابنه بتعهد

الأسوار وتفقدها، فبعث اركاديوس رجالا إلى خارج الحصن يتفقدون الخندق المحيط به .. وأوصاهم أن يغرسوا شوك الحديد فى قاعه وجدرانه.

أما أرمانوسة ، فإنها وصلت إلى ضفة النيل بموكبها .. وكان والدها وأخوها قد علما بقدومها فخرجا لملاقاتها ورحبا بها وسألاها عن العرب ، فأخبرتهما بما تم لها معهم ، وأثنت على شهامة عمرو .. فاستبشروا بنجاح حيلتهما ، وكانت القوارب معدة لاستقبالها فركبت ومن معها إلى منف .

وبعد أن وصلت القصر وانفردت ببربارة، قالت لها: «ها نحن قد عدنا إلى حيث كنا ... وكأن ما مر بى فى أثناء هذه الغيبة أضغاث أحلام». فأمسكت بربارة بيدها، وقالت: « كيف تقولين إنها أضغاث أحلام ، وقد نلت ما كنت تتمنين ؟» .

فأجابتها أرمانوسة : «أجل إنها أضغاث أحلام لأنى لم أنل شيئا غير الآمال .. وما أحسب ما مر بى من مشاهدة أركاديوس وسماع كلامه إلا حلما مر وزال ، بل أرانى أكثر قلقا عليه من ذى قبل .. فقد كنت أشك فى حبه ، فلم أكن أشعر بمثل ما أنا فيه من القلق عليه ، فهل تسمح لى الأيام بالظفر به » .

قدوم العرب إلى الحصن

أما أركاديوس فقد طلب منه أحد جنود الحامية أن يسير إلى أبيه لأمر يريد مخاطبته فيه ، فسار حتى دخل على والده، فحياه وجلس إلى جانبه .. فآنس والده شيئا من الارتباك على وجهه، فابتدره قائلا: «مالى أرى أثر الانقباض على وجهك يا أركاديوس .. هل داخلك خوف من أمر العرب ؟»

فانتبه أركاديوس لنفسه ، وتظاهر بالدهشة قائلا : «أنت تعلم يا أبى أنى لا أخاف الموت ولا أحسب للحرب حسابا ، فكيف تقول إنى خائف .. وما الذى يخيفنى وأنا تحت جناحك .. وخصوصا أنى

رأيت هؤلاء العرب وعلمت من ضعفهم وقلتهم ما لا تعلمون. وأما ما ظننته فىّ من الارتباك ، فهو وليد اهتمامى بالاستعداد وتدبير الوسائل لدفع الأعداء ولا شك فى فوزنا عليهم» .

فقال أبوه: «اخبرنى يا أركاديوس بما خبرته من هؤلاء العرب وقوتهم مما عاينته وشهدته ، وقل كيف استطاع هؤلاء البدو فتح حصون الفرما وبلبيس مع ما ذكرته من ضعفهم وقلتهم» .

فتحير اركاديوس ، لا يدرى بماذا يجيب .. ولكنه خشى أن يسىء أبوه الظن به، فتبسم وأظهر عدم المبالاة ، وقال : «إنى أعلم أن الحرب سجال ، يوم لنا ويوم علينا . فلا عجب إذا انتصر العرب على بعض حصوننا وهى لا ريب ضعيفة ، فلعل الله قدر أن يكون دفعهم على أيدينا فننال الفخر دون سائر حاميات الروم فى مصر» .

فقال الاعيرج : «بورك فيك يا ولدى ولا تنس بث العيون فى جهات بلبيس لينبئونا بقدوم العرب ، فنكون على بينة من أمر مسيرهم فلا يأتوننا على غرة . وأوصيك ألا تأمن للمقوقس ولا لرجاله فإنهم يمالئون العرب علينا» .

فخرج أركاديوس وقضى معظم اليوم فى التأهب .

وفى مساء ذلك اليوم ، جاءهم الجواسيس ينبئونهم بإقلاع العرب عن بلبيس وقدومهم نحو الحصن، وفى صباح الغد شاهدوا الغبار يتطاير من وراء المقطم ، فتحولوا إلى شمالى الحصن يراقبون وصول العرب .. فلما كان الضحى ، تكاثر الغبار وبانت من خلاله الأعلام والفرسان والهجانة . وبعد قليل وصل الساقة ، وعسكر الجميع فى البقعة التى بين الحصن والمقطم . وكانت كلها بساتين وغياضا لا شىء فيها من العمارة إلا بعض الأديرة القائمة مبعثرة هنا وهناك .. فنصبوا خيامهم فى الموضع الذى به الآن جامع عمرو وما يحيط به .

أما المقوقس فتظاهر بالاهتمام والرغبة فى دفع العرب ، وذهب إلى الأعيرج وخاطبه بشأن معدات الدفاع .. وكان الاعيرج يكتم ما يظنه

من علاقة بين المقوقس والعرب ، فأجاب : «إننا لا نلبث أن نعيدهم على أعقابهم .. وهم إنما غرهم ما لاقوه من ضعف حامية بلبيس» .

فقال المقوقس : «وإنى لأعجب من تغلبهم على بلبيس وهم فى مثل هذا العدد القليل» .

فقال الاعيرج وقد استخف بقول المقوقس: «سنتركهم وشأنهم حتى يملوا الانتظار .. فإذا هاجموا الحصن رددناهم بالنبال والحجارة، فإن هذا يمتنع على أضعاف أضعافهم لما تعلم من مناعته وخصوصا بعد حفر الخندق المحيط به ، فإن هؤلاء العرب إذا هاجمونا واحتملوا نبالنا منعهم الخندق من الوصول إلى السور .. فإذا نزلوا الخندق انغرست أشواك الحديد فى أقدامهم وهم حفاة . كل ذلك والنبال تتساقط عليهم من السور» . وقضوا ذلك اليوم فى مراقبة حركات العدو . فلما كان الأصيل شاهد اركاديوس رجلا قادما عن بعد ومعه علم أبيض ورجلان آخران والكل مشاة .. فعلم من لباسه أنه عربى ، فأدرك أنه قادم للتداول فى شأن من الشئون .. فأنبأ والده فخرج لمشاهدة الرسل من أعلى السور ، وأمر بالترجمان فجاء . فلما دنا أولئك الثلاثة من الحصن ، تقدم واحد منهم وخاطب الحامية بالقبطية بلغة دلت على أنه ليس دخيلا فيها فأغناهم عمن يترجم كلامه . وكان مرقس فى جملة الوقوف على السور ، فعرف أن المتكلم هو زياد العربى صاحب يحيى النحوى ومعه وردان ورجل آخر لم يعرفه ، وقد قالوا إنهم جاءوا بكتاب من أميرهم إلى المقوقس . ففتحتوا باب الحصن وأدخلوهم ، وقد تجمهرا الجند لمشاهدة لباسهم وهيئتهم . أما هم فساروا بأقدام ثابتة كأنهم دخلوا الحصن فاتحين فائزين ، فرافقهم بعض الحراس حتى وصلوا إلى غرفة المقوقس ، وكان جالسا بجانب الاعيرج وبجانبه ابنه ، وبجانب الأعيرج أركاديوس .. وبين أيديهم أرباب المجلس ومعظمهم من الروم ..

فدخل وردان وقدم خطاباً مكتوبا بالعربية أمر المقوقس الترجمان بتلاوته فتلاه عليهم ، وإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

«من عمرو بن العاص أمير جند العرب القادم لفتح مصر إلى المقوقس حاكم مصر. أما بعد فإن الله قد كتب النصر لنا منذ دخلنا هذه الديار ، ففتحنا الفرما وبلبيس عنوة .. ولابد لنا من فتح هذا الحصن. ولا نبالى بمن يقتل منا فى سبيل فتحه ، فإن كل واحد منا ينتظر ساعة الشهادة ليلقى وجه ربه، وها أنذا عرض عليكم حلا من ثلاثة: فإما أن تدخلوا فى ديننا فيكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، أو أن تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فإن أبيتم فليس بيننا إلا السيف فاختاروا لأنفسكم» .

فلما أتم الترجمان تلاوة ذلك الخطاب ، تكدر الاعيرج واشتد به الغضب ونظر إلى المقوقس كأنه يستشيره فى الجواب . فأمر بإخراج الرسل إلى مأمن تحت الحفظ ، ريثما يعودون بالجواب . وخلا المجلس فتفاوضوا .. فتظاهر المقوقس بأنه يرى أن التسليم لا يليق بهم وهم لا يلاقون ضيقا ولا عنفا ، فقر الرأى على أن يجيبوا بأنهم يختارون السيف حكما .. فكتبوا الجواب وختمه المقوقس باسمه ، لأنه هو الوالى الذى تصدر المخاطبات والمداولات باسمه ، وسلم الخطاب إلى مرقس وكان بين يديه ، على أن يسلمه إلى رسل العرب وأمره أن يشيع – هو ورفاقه – أولئك الرسل إلى باب الحصن ، فلما ذهبوا خشى المقوقس أن يظن عمرو فيه سوءا بعد أن يطلع على اللهجة الشديدة فى جوابه . وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فذهب إلى غرفته .. وخلا بابنه وتداولا فى الأمر ، فقال أرسطوليس : «أرى أن نبعث إلى العرب نستمهلهم فى الفتح . ونفهمهم أننا على عهدنا معهم» ، فقال : «ومن يوصله ؟» . قال : «يوصله مرقس فإنه يعرف العرب» .

فكتب أرسطوليس كتابا بالقبطية أبان فيه أن الكتاب الذى بعثه جوابا على خطابهم ، إنما كتبه ليموه به على من معه من الروم متظاهرا بأنه يريد دفع العرب . ولكن الحقيقة أنه باق على عهده معهم ، ولا يلبث أن يسلم الحصن إليهم ويتفق معهم على شروط الصلح ، ولكنه استمهلهم فى تحقيق ذلك حتى تسنح الفرصة .

وبعث المقوقس إلى مرقس ، فدفع إليه الكتاب، وشاوره فى كيفية إيصاله إلى العرب .

فقال مرقس : «أما الخروج إلى العرب فلا يخلو من الخطر ، وهؤلاء الروم قد أساءوا الظن بنا .. فهم يراقبون خطواتنا مثل خطوات عدوهم ، فإذا شاهدوا أحدا منا فى حال توجب الشبهة دققوا فى استطلاع حاله ، فما قولك إذا شاهدونى سائرا تحت جنح الليل نحو معسكر العرب ؟ فالرأى أن أحتفظ بهذا الكتاب إلى فرصة أغتنمها للذهاب إلى منف لمهمة خاصة ، ثم أتحول من هناك بطريق آخر إلى معسكر العرب فلا يرانى أحد.. والرأى لكم» .

فاستحسنا رأيه.. وتركا الكتاب معه تلك الليلة ، وأمراه بالعودة إلى مكانه فوق السور . وأثناء عودته تذكر أركاديوس وحاله مع أرمانوسة، وأيقن أن مساعى المقوقس هذه تضر بأركاديوس وربما أدت إلى قتله إذا دخل العرب الحصن على حين غفلة .

ورأى أن يسعى فى طريقة يجعل بها حياة اركاديوس فى مأمن يوم دخول العرب الحصن ، فتدبر مرقس كل هذه الظروف ، فقرر فى نفسه أنه إذا عرف يوم دخول العرب الحصن أوعز إلى أركاديوس بالخروج .

فلما وضحت له هذه الملابسات ، ارتاح باله وسكن روعه . استدعاه المقوقس بعد ذلك وقال له: «لقد قررنا أن نبقى محاصرين لا نفاجىء العرب بحرب .. ولأن الحصار قد يطول ونحتاج إلى مئونة، فقد قررنا أيضا أن نبعثك مع جماعة إلى منف، فتطمئن ارمانوسة

علينا وتبقى هناك ، فإذا عاد الناس بأحمالهم اذهب أنت من طريق آخر إلى معسكر العرب وادفع الكتاب إلى أميرهم» ، فقال مرقس : «حسنا يا سيدى ، ولكن هل تظن أن يوم نجاتنا من هؤلا الروم قريب؟» .

وقد أراد مرقس أن يستطلع أفكار سيده ليكون على بصيرة من ساعة الخطر ، فيسعى فى إنقاذ أركاديوس، فقال المقوقس: «إن يوم النجاة قريب ، ولكنه لا يكون قبل مرور بضعة أشهر . ولا يخفى عليك يا ولدى أن تسليمنا للعرب أو تسهيل الفتح عليهم يجب أن يكون بعد حين ، فنحن إذا عجلنا فى ذلك ظهر تواطؤنا ، وتحقق الروم كافة أننا نحن الذين ساعدناهم . أما إذا طال الحصار فستبعد الشبهة عنا نوعا ، فاحذر أن يلحظ أحد شيئا مما ذكرته لك» .

فخرج مرقس وفعل كما أوصاه المقوقس وقد ارتاح باله على أركاديوس ، فسار مع من سار إلى منف .

ثم سار إلى أرمانوسة ،فاستطلعته الخبر فقال : «إن العرب نزلوا خارج الحصن ، وقد كتبوا إلينا أن نسلم فأخبرناهم أننا مصرون على الدفاع» .

فضحكت بربارة وقالت : «دعنا من المزاح وقل لنا الواقع، وما هو شأن مولانا المقوقس مع أمير العرب، فقد علمنا أنهما متعاهدان .. فهل هما باقيان على العهد ؟» .

قال : «نعم يا سيدتى أنهما باقيان كما تعلمين ، وهذا كتاب من سيدى المقوقس إلى الأمير عمرو بهذا الشأن» . ومد يده وأخرج الكتاب ودفعه إلى أرمانوسة ، ولم يكن مختوما فقرأت ما فيه ، فلما جاءت الى آخره شعرت بانقباض ، ولكنها صمتت برهة ثم قالت : «وماذا تكون عاقبة هذا التواطؤ على أركاديوس ، ألا تظنه يصبح فى خطر ، وهو شجاع اذا لقى الموت لا يفر منه؟ ! » ..

فتبسم وقال : «وقد دبرت حيلة اذا أطلعتك عليها استصوبتها لا محالة » ..

قالت : «وما هى ؟» ..

فحكى لها ما خطر له .. فقالت : «بورك فيك .. انه الرأى الصائب، ولكن احذر ان تبطىء فى الاتصال به» ..

فقال «أرجو أن تأمرى بإعداد قارب أنزل فيه هذا المساء فى النيل بعيدا عن الحصن حتى أصل قبالة معسكر العرب، فأصعد اليهم وأبلغهم الرسالة، فأوصت بربارة بذلك».

الفشل

فلما أمسى المساء ، ركب القارب وفيه نوتيان من خدم ارمانوسة، فسار القارب شمالا بإزاء الضفة الغربية بحيث لايراهم أحد، ولم تمض بضع ساعات حتى وصلا قبالة الحصن وبينهما وبينه جزيرة الروضة ، فأفهم مرقس النوتيين أنه يريد الذهاب الى الحصن، فقالا : «تذهب اليه من هذا المكان ، فتتحول من فوق هذه الجزيرة (جزيرة الروضة) فتصل إلى الحصن» ، فقال : «بل أفضل التحول من أسفل الجزيرة» .

فأطاعاه ، فلما تجاوزوا الجزيرة ، ادرك مرقص أنهما صارا قبالة معسكر العرب.. فأمرهما بادارة الدفة وعبور النهر الى الشاطىء الشرقى، فقال أحدهما وكان خبيرا بأحوال النيل: «إن مسيرنا بهذا الشكل شديد الخطر يا سيدى» ، فبهت هنية ثم قال : «وما العمل إذن؟» ..

فقال النوتى : «لا حيلة لنا فى ذلك يا سيدى ، ولابد من استحضار المجاديف نستعين بها على مقاومة المجرى أو نتريث الى الصباح» .. فخشى ان تعرقل مساعيه اذا دهمه الوقت فقال : «هلم فلنقطع النيل على بركة الله» ، فنصحا له ان يتمهل وبينا له الخطر المحدق بهم فأصر على رأيه .. فأطاعاه رغم ارادتهما ، فدار القارب نحو الشرق ولكنه لم يتقدم قليلاً حتى شعروا بميله مع الريح والمجرى وقد كاد يهوى بهم. فقال مرقس «وما الحيلة الآن؟» . قالا : «لا

حيلة إلا بأن نسير مع التيار لا ضده» . فقال : «افعلا ما تريان» فأدارا الدفة وأنزلا الشراع ، فسار القارب بقوة التيار سيرا حسنا ، حتى بعدوا عن الحصن ، فلم يروا فى ذلك فائدة فاستشاط النوتيان غضبا وهما لا يعرفان لذلك المسير مسوغا .. ولكنهم شاهدوا سفينة كبيرة قادمة نحوهم من جهة الحصن :

فلما دنت السفينة من القارب أخرجوا الأنوار ليتعارفوا ، فعرف مرقس ان رجال السفينة من جند الروم وهم عرفوه ، فسألوه عن سبب مجيئه إلى هذا المكان.. فادعى انه يريد العبور إلى الحصن وان التيار السريع والريح الشديدة قذفا بالقارب بعيدا .. ومزق مرقس الكتاب خفية، وألقاه فى النيل ، وطلع الى السفينة والنوتيان معه فعادت بهم، وباتوا تلك الليلة فيها . وفى الصباح التالى ساقوهم الى أركاديوس ، فلما رآهم عرف مرقس وتذكر أرمانوسة ، فلما اخبره بحكايته عزم على تبرئته ولكنه احب أن يستطلع حقيقة الحال بنفسه فصرف الجند والنوتيين وخلا بمرقس فقال له : «ما حكايتك يا مرقس ؟..» . فسكت مرقس ولم يجب، فلما ألح عليه واظهر سوء ظنه ولاح الغضب على وجهه، نهض، وقال إنى لا استطيع ان أصارحك بالتفاصيل ، ولو أمرت بقطع رأسى، ولكننى اقسم بشرف اركايودس وحبه لأرمانوسة انى لم أخط خطوة إلا ونظرت من ورائها الى مصلحة سيدى أركاديوس، ولا باشرت عملا إلا بأمر سيدتى ارمانوسة» ..

فأطرق أركاديوس برهة ، وقد ادرك ان حكاية مرقص سرا لا يخرج عما لحظه قبلا من تواطؤ القبط والعرب.. ولكن حبه لأرمانوسة وثقته بمرقس ألجما لسانه عن الكلام ، فغير الموضوع قائلا : «وكيف فارقت ارمانوسة؟» ..

قال : «فارقتها بخير وعافية تلهج بذكرك وتحلم برؤيتك وتعد الساعات والدقائق للقائك ، ولكنها تعجب لصبرك على بعدها !» .

فتنهد أركاديوس تنهدا عميقا، وخلا بنفسه يفكر فى حاله ...

أما مرقس فسار الى مولاه المقوقس وقص عليه ما تم للرسالة، فقال : «حسنا فعلت . ولكن ارجو ان تكون قد مزقتها» ..

فقال : «مزقتها قطعا صغيرة جدا»، على أن المقوقس دبر بعد ذلك وسيلة خابر بها «عمراً» وتفاهما وتواعدا ..

فتح الحصن

وظل الحصن محاصرا والعرب معسكرون حوله سبعة أشهر، جاء فى أثنائها مدد من الخليفة عمر بن الخطاب يقترب من أربعة آلاف رجل آخرين . فصارت قوة العرب ثمانية آلاف.. وفيهم جماعة من نخبة القواد المسلمين ..

فمضت الشهور السبعة واركاديوس على مثل الجمر تشوقا لأرمانوسة ..

وذات ليلة من ليالى الشهر السابع ، جاءه أحد الحرس ينبئه بمجيء مرقس، فاختلج قلبه فى صدره لعلمه انه قد يكون قادما برسالة من أرمانوسة فأذن بإدخاله فدخل وسلم فقال له : «ماوراءك يامرقس ؟» .. فدفع اليه، فاذا هو من ارمانوسة وقد جاء فيه كتاباً:

«من أرمانوسة الى حبيبها اركاديوس ..

اما بعد فاذا كانت ارمانوسة لا تزال تخطر ببالك او ما برحت حياتها تهمك ، فأسرع اليها حال وصول هذا اليك.. والسلام» .

فلم يكد يتلو الكتاب حتى تغير لونه وانقبضت نفسه خوفا على أرمانوسه ، وقال لمرقس : «هل جئت بهذا الكتاب من عندها أم هى ارسلته اليك مع رسول ؟» ..

قال : «بل أرسلته مع رسول دفعه إلى ، وكر راجعا» .

فقال : «انها تدعونى ان اذهب اليها على جناح السرعة» .

قال : «خيرا ان شاء الله... فهل انت مزمع على الذهاب ؟» ..

قال : «لابد من ذلك .. ولكن كيف أترك الحصن ؟» .

قال : «تذهب متنكرا فتقضى بضع ساعات عندها ثم تعود» ..

قال : «نذهب اذن بعد منتصف الليل متنكرين ، بحجة اننا جواسيس من أركاديوس..» ..

وكان مرقس قد اعد قاربا عند الضفة فركبا فيه ، واوصى النوتية ان يبطئوا ما استطاعوا حتى يصلوا منف عند الضحى.. فسار القارب والكل سكوت، واركاديوس يستحث النوتية ويحسب لخروجه هذا الف حساب خوفا من غضب والده حتى وصل إلى منف، وأطل على قصورها، وكان أول قصر شاهده قصر أرمانوسة ، لأنه اعلاها كلها.. ولم يكن قد دخله قبل ذلك اليوم، فأخذ يستعد لمقابلة حبيبته بعد طول الفراق ..

أما هى فكانت تنتظره فى حديقتها، وقد ارسلت بربارة لاستقباله.

ودخل أركاديوس وارمانوسة الى غرفتها الخاصة وبربارة معهما ، وما أن دخلاها ، حتى سلما وتصافحا فأمسك اركاديوس بيدها فأحس بتيار كهربائى ارتعش منه جسمه، ونسى الحصن وأهله والعرب والروم.. ولحظ أركاديوس فى وجه أرمانوسة نحولا وذبولا فانفطر قلبه ..

وكانت بربارة قد أعدت لهما مائدة عليها أنواع الأطعمة والأشربة، فلما جلسا قالت أرمانوسة : «مرحبا بالقادم بعد طول الغياب، وقد كنا نحسب أن الحصار على الجند فى الحصن فقط .. فإذا هو حصار علينا ايضا» ..

فقال : «لا تبدئى بالعتاب قبل أن تخبرينى عن سبب استدعائك لى بعبارة مبهمة شغلت بالى وأثارت فى الظنون» ..

قالت : «مادعوتك إلا لأراك فقد قضيت سبعة اشهر.. لا يرتاح لى بال ولا أذوق نوما حتى صرت الى ما تراه من الضعف وخشيت ان يكون ذلك الوداع آخر عهدنا باللقاء ، لاسيما ونحن فى حال

توجب الاضطراب والخوف . ألعلك لا تزال على عزمك من معاناة الحروب غير مبال بما يقاسيه هذا القلب ؟!» ..

قال : «إنى احب الحرب يا أرمانوسة من أجلك ، لأدافع عنك.. وأنا استقبل السيوف والنبال تعزيزا لمقام خطيبك » ..

فقطعت عليه الكلام قائلة : «إن كنت تحبنى وتبغى رضاى، أقلع عن الحروب ودع الحصون وابق الى جانبى .. فإنى لا استطيع صبرا على بعدك » ...

فتنهد وقال لها : «نعم إنى أحبك وأنت تعلمين ذلك ، ولكننى أحب شرفى وأحب وطنى ايضا .. أتريدين ان تترك حصوننا غنيمة لهؤلاء العرب القادمين الينا من أقصى بادية الحجاز ، ونحن الروم ارباب المجد والسطوة؟ .. أنفر من وجه جماعة من البدو رعاة الابل؟... أترضين لى بذلك ؟» .

قالت: «حاشا لى أن أريد لك حطة، لأنى أفاخر الناس أنك بطل باسل.. ولكننى قد اعتزمت الا أفترق عنك بعد هذا اللقاء» .

فنهض مذعورا وقال : «أصحيح ما تقولين يا أرمانوسة؟.. هل تريدين لى هذه الخيانة؟... ألا تخجلين إذا ذكر أركاديوس ان يقال إنه جبان يفر من الحرب.. لا أظن انك ترضين بذلك ؟» ..

قالت: «قد رأيت فى الحلم أن الحصن أخذ... وخشيت أن يصيبك ضرر، فاستقدمتك إلىّ على أن لا أفارقك إلا بالموت» .

فتلطف فى حديثه تخفيفا لما ثار فى قلبه، وقال: «تعقلى ياحبيبتى، فقد صبرت شهوراً فاصبرى أياما.. وسترين العاقبة على من تكون، ولو تركنى والدى أفعل ما أريد، لخرجت إلى جند العرب المعسكر حول الحصن بشرذمة من رجالى فقط وبددتهم».

فتبسمت ثم قالت: «وهب انكم حاربتم العرب فى هذا الحصن ثم خرجتم منه إلى غيره، فإنك تحاصر فى ذاك أيضا، ثم تذهب إلى حصن آخر وهكذا، وتترك أرمانوسة فى زوايا النسيان» .

قال: «حاشا لى أن أنسى أرمانوسة أو أغفل عن راحتها، وأعدك وعدا أكيدا أن وقعة هذا الحصن ستكون الحد الفاصل» .

قالت: «أقسم لى قسما ثابتا» ..

فأقسم بشرفه ومحبتها إنه إذا انقضى أمر هذا الحصن لهم أو عليهم، لا يعود إلى حرب أو إلى مايوجب فراقا.

وطال بهما الحديث حتى صارت الشمس فى الأصيل، فقال أركاديوس: «أرانى قد أخللت بواجباتى فتركت معقلى وجندى فجأة وجئت.. وقد طال بى المقام.. هلا أذنت لى بالذهاب؟» .

فأمسكته تريد إقناعه بالبقاء قليلا وهو يعتذر، وإذا بأحد الخدم يدخل وعلى وجهه أمارات البغتة.

فقالت بربارة: «ما الخبر؟» .

فقال: «رأيت سفنا قادمة من جهة الحصن» .

فأطلت أرمانوسة من شرفة القصر، وأطل أركاديوس، فإذا هى سفن جندهم وفيها بعض رجالهم.. فاختلج قلبه فى صدره وأوعز إلى أرمانوسة أن تستعجل بعضهم ليرى ماسبب ذلك، وبعد قليل وصل قارب عليه عدد من رجال المقوقس واتجهوا إلى القصر.

فخاطبتهم واركاديوس منزو يسمع وهو على مثل الجمر. ارمانوسة: «قولوا.. ما وراء كم ؟» .

فتقدم أحدهم قائلا: «إن المقوقس بعثنا إليك لتكونى على استعداد للسفر إذا اقتضت الحال؟» .

فقالت أرمانوسة: «وما الداعى لهذا الاستعداد؟» .

قال: «لأن العرب دخلوا الحصن فى هذا الصباح على حين غفلة، وخرج سيدى المقوقس ومن بقي من الجند إلى جزيرة الروضة على الجسر الذى كانوا قد نزعوه، فأعادوه ومروا عليه، والمنتظر أن العرب سيتعقبونهم إليها فيضطرون للمجيء إلى هنا» .

فلما تحقق أركاديوس من سقوط الحصن، ترقرقت الدموع فى

عينيه، رغم إرادته.. فتوارى وراء حائط الشرفة لئلا يلحظ أحد منه ذلك، أما ارمانوسة فكانت تراعيه بعينيها، ولم يكن خبر سقوط الحصن شيئا غير منتظر عندها.. ولكنها تظاهرت بالدهشة أمام أركاديوس لكى تنطلى الحيلة عليه، فلما رأته على هذه الحال، تركت الجندى يخاطب بربارة ودنت منه على الشرفة بحيث لايراها أحد وأمسكته بيده.. فإذا بدموعه تتساقط على خديه وهو لايبدى حراكا، فقالت له: «مالك ياحبيبى هل تبكى..؟».

فلم يجب لأن العبرات خنقته..

فأمسكت بيده فإذا هى باردة ترتجف وأراد جذبها منها، فضغطت عليها وقالت: «لماذا لاتجيب يا أركاديوس؟».

فالتفت إليها والدمع ملء عينيه، وقال: «كيف لا أبكى يا أرمانوسة وقد خرج الحصن من أيدينا، وأنا مقيد هنا لا أستطيع حراكا، ومن الغريب أن هؤلاء الرعاة لم يفعلوا ما فعلوه إلا وأركاديوس بعيد عنهم، ولكن آه يا ارمانوسة.. آه من الحب، ما أعظم سلطانه، إن الحب وحده كان سبب سقوط هذا الحصن، فقد كان فى وسعى تفادى ذلك الشر قبل وقوعه.. ولكن حبى لأرمانوسة حملنى على التجاهل، فالعرب لم يغلبونا، ولكنها خيانة أنا شريك فيها عن غير عمد منى، والحب يعمى ويصم..».

فقالت: «اجلس ياحبيبى ريثما نستفهم من هذا الرسول عن كيفية سقوط الحصن، لعلنا نكتشف أمرا جديدا».

قال: «وماذا عسى أن تكتشفى؟.. فلقد كشفت الحقيقة، فهل أستطيع بعد هذا أن أقابل والدى.. ألا يحسبنى شريكا فى الخيانة؟».

قال ذلك وهو يحاذر أن يسمعه الرسول أو يدرك أنه هناك، ولكنه كان شديد الميل إلى معرفة كيفية سقوط الحصن، فقال لأرمانوسة: «اسأليه عن كيفية السقوط».

فعادت إليه وقالت: «أحك لنا كيف دخل العرب الحصن؟».

فقال: «لا نعلم كيف دخلوه، ولكننا أصبحنا فإذا هم يتسلقون الأسوار، وكان سيدى المقوقس قد أمرنا بالخروج إلى جزيرة الروضة، فقطعنا الجسر وأقمنا هناك».

فقالت: «ألم تحاولوا أن تصدوا العرب عند دخولهم؟».

قال: «قلما دافعناهم، على أن جند الروم دافعوا قليلا.. ولكن العرب لم يتركوا لنا فرصة للدفاع».

فقالت: «هل جاء والدى بنفسه إلى جزيرة الروضة؟».

قال: «نعم ياسيدتى ومعه رجال حكومته وسائر جنده».

فقالت: «وماذا جرى للأعيرج ورجاله؟».

قال: «أظنهم ساروا إلى الاسكندرية ليتحصنوا فيها».

فقالت أرمانوسة للرسول: «سنأخذ فى الاستعداد للسفر» واستدعت بربارة وقالت: «يجب أن نتأهب كما قال والدى، ولكننى فى قلق عليه.. فلنبعث إليه رسولا يأتينا بتفصيل الوقعة».

فقالت: «لا نرى أليق من مرقس لهذه المهمة».

ولما أخبرته بربارة بخبر الحصن لم يستغرب الأمر. وسأل عن أركاديوس، فدلوه على مكانه فذهب إليه. ووقف أمامه قائلا: «ما بال سيدى يبكى وهو البطل المجرب الذى لاتهوله الحوادث، فهل يبكيك الفشل مرة وأنت تعلم أن الحرب سجال.؟».

فتنهد اركاديوس وقال: «دعنى يامرقس إن كلامك هذا لايعزينى، فما أنا ممن ييأسون من النصر، والانكسار فى الحرب لايوجب يأسا لأن القتال سجال كما قلت، ولكننى آسف لأنى تعاميت عن حقائق كنت أراها رأى العين، وأحسب أننى لم أرها وأكذب نفسى. شاغل شغلنى عن والدى ووطنى ألا وهو الحب. ولولا تلك الغشاوة لكنت قادرا على انقاذ الحصن ومن فيه، وارجاع هؤلاء العرب على أعقابهم القهقرى، فأنا أشعر بأنى شريك فى الخيانة».

فأدرك مرقس أن اركاديوس لم يكن غافلا عن تواطؤ المقوقس

والعرب، فتجاهل، وقال: «إنى لا أرى سيدى أركاديوس أتى أمرا يلام عليه، فإنك عمدة جند الروم وخيرة أبطالهم، ولم تخرج من الحصن فارا ولكن العناية قدرت لك التخلص من عار الفرار.. وها أنذا ذاهب للبحث عن تفصيل الواقعة وسأعود اليكم بالخبر اليقين»، وودعه وخرج فناداه أركاديوس، فعاد وقال: «تفهم الحقيقة جيدا، وأخبرنى عن عدد الجند، وقل للمقوقس إننا يجب أن نعيد الكرة على العرب من الجزيرة، فإذا رأيت منه ميلا إلى ذلك فأخبرنى.. ولاتنس أن تتحقق من أمر والدى».

عقد الصلح

أما أرمانوسة فقد ساءها كثيرا تكدر أركاديوس، ولكن سرها نفاذ حيلتها، وأركاديوس لايصدق خبر سقوط الحصن وفرار حاميته، فقال لأرمانوسة: «أرانى فى حلم ولا أستطيع تصديق الخبر.. إنها لخيانة أو لعله سحر أو غضب الله».

فقالت أرمانوسة: «لعله الأخير»، وتبسمت تريد مداعبته.

فأتم كلامه قائلا: «هبى أنهم أخذوا الحصن، فلسوف يخرجون منه قهرا.. إذ يسهل علينا أن نحصرهم فيه، ونقطع عنهم المؤونة حتى يسلموا أو يهلكوا جوعا.

فقالت أرمانوسة: «سننظر فى ذلك»..

وقد صممت فى نفسها ألا تتركه يبتعد عنها مهما كان من الأمر، وقد أعدت بربارة غرفة خاصة لنوم أركاديوس.. فذهب إليها. وأصبحوا جميعا وأهل منف فى قلق يستعدون للفرار.. وأما أرمانوسة فلبثت طول ذلك اليوم تنتظر عودة مرقس فلم يعد، وكان أركاديوس قد خف يأسه، وعاد إليه الأمل فى استرجاع الحصن، وفى اليوم الثالث أصبحوا وقد ملوا الانتظار.. فما لبثوا أن شاهدوا قارب مرقس فعرفوه.

وجاء مرقس إليهم، وجلس يقص عليهم فقال:

«وصلت الجزيرة مساء أول أمس، فوجدت جندنا يعسكر فيها.. فسرت إلى سيدى المقوقس وسيدى ارسطوليس، وطمأنتهما على سيدتى ارمانوسة، وقضينا الليل فى حديث الحصن، فأخبرونى أنه أخذ بغتة وأن العرب يقيمون فيه، وأن جند الروم ساروا إلى الاسكندرية وفيهم مولاى الأعيرج، وقد أدركت من سياق حديث سيدى المقوقس أن الناس فى ريب من أمر سيدى أركاديوس، وعلمت أيضا أن سيدى المقوقس بعث إلى أمير العرب يعرض عليه أن يرسل وفدا من خاصته للتشاور والتفاهم على أمر فيه خير الفريقين، وأرسل إليهم قاربا يركبون فيه الينا.. فبتنا ليلتنا وأصبحنا ننتظر مجيء الوفد. فلما كان الضحى جاءنا نبأ بأنهم وصلوا للجزيرة، فبعث سيدى وفدا استقبلوهم.. فما لبثنا أن رأينا الوفد قادمين وهم عشرة، وتقدم واحد منهم لم أر عمرى أفظع منه منظرا، فإنه أسود اللون طويل القامة جدا هائل المنظر.. قال إنه رئيس الوفد وخطيبهم واسمه عبادة بن الصامت، وقد شاهدت منه جرأة لم أعهدها فى أحد من الناس حتى الآن، ولحظت أن سيدى وأهل مجلسه هابوا منظره، وكأنى سمعت سيدى يطلب اخراجه وتقديم سواه للمداولة معه، فقال رفاقه: «هو رئيسنا والمقدم علينا». فقال له سيدى بواسطة الترجمان: «تقدم يا أسود وكلمنى برفق، فإنى أهاب سوادك» فتقدم وقال: «قد سمعت ما تقول، وأن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا وجميعهم أشد هيبة منى، وأنا قد ولى شبابى وأدبر، ومع ذلك فإنى بحمد الله لا أهاب مائة رجل.. وذلك انما لرغبتنا فى الجهاد واتباع رضوان الله، وليس غزونا لعدونا بسبب رغبة فى الدنيا أو طلب الاستكثار منها، وانما هو فى سبيل الله.. فإنه عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالا. وما يبالى أحدنا إن كان له قنطار ذهب أو كان لا يملك الا درهما، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى سبيل، لأن نعيم الدنيا ليس نعيما ورخاءها

ليس رخاء.. انما النعيم والرخاء في الآخرة. بذلك أمرنا الله وأمر به نبينا، وعهد الينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا الا ما يمسك به جوعه ويستر به عورته، وتكون همته وشغله فى رضوان الله وجهاد عدوه».

فلما سمع سيدى هذا الكلام قال لنا بالقبطية: «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟.. لقد تهيبت منظره وأن قوله لأدعى للهيبة.. ان هذا وأصحابه أخرجهم الله لتملك الأرض، ما أظن أن ملكهم الا سيغلب على الأرض كلها»، ثم التفت الى عبادة، وقال له: «أيها الرجل الصالح لقد سمعت قولك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمرى انكم لم تبلغوا ما بلغتم الا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه منا لقتالكم من جند الروم ما لا يحصى عدده.. قوم عرفوا بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم بمن لقى ولا من قاتل، وأنا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم.. وقد أقمتم بيننا شهوراً وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار، وأن تقبضوها وتنصرفوا الى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به»..

فأجابه عبادة بجسارة: «لا تغرن نفسك ولا أصحابك.. أما ما تخوفنا به من جند الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا مما تخوفنا به، ولا بالذى يثنينا عما نحن فيه. وإن كان ما قلتم حقا، فذلك والله يزيدنا رغبة فى قتالهم وحرصاً عليه، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه وقد قتلنا عن آخرنا فيهيىء لنا السبيل الى رضوانه وجنته.. وليس شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك. وإننا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين: اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا، وغنيمة الآخرة أحب الينا. وقد قال الله عز وجل فى كتابه العزيز:

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين». وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحاً ومساء أن يهيىء له سبيل الاستشهاد، وأن لا يرده الى بلاده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده.. وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه أهله وولده، وانما همنا ما أمامنا. وأما قولك اننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن فى أوسع السعة.. لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذى تريده فبينه.. فليس بيننا وبينك حل نقبله سوى أحد هذه الحلول الثلاثة.. فاختر أيها شئت، ولا تطمع نفسك بالباطل، بذلك أمرني الأمير.. وبه أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله لمن أقبل الينا.. أما إن قبلتم الإسلام الذى هو الدين القيم الذى لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا وكنتم أخوة لنا فى دين الله. فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك، فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، وأن أبيتم الا الجزية فأدوها الينا عن يد وأنتم صاغرون، وأن نعاملكم على شيء، نرضى به نحن وأنتم، فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم.. وسنقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم.. نقوم بذلك عنكم إن كنتم فى ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا. فان أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا السيف حتى نموت عن آخرنا، أو نصيب منكم ما نريد. هذا ديننا الذى ندين لله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم».

فعجبنا لجسارته وقوة جأشه، فقال سيدى: «أفلا تجيبوننا الى غير هذه الحلول الثلاثة» فرفع عبادة يده الى السماء حتى كادت تدرك سقف الغرفة لطولها، وقال: «ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، مالكم عندنا حل غيرها، فاختاروا لأنفسكم».

فالتفت سيدى إذ ذاك إلى أرباب مجلسه، وقال: «قد فرغ القوم.. فماذا تريدون»؟ فقالوا: «أيرضى أحد بهذا الذل؟ إنما ما أرادوا من

دخولنا فى دينهم، فهذا لا يكون أبدا أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين غيره لا نعرفه.. وأما ما أرادوا أن يسبونا ويجعلونا عبيداً، فالموت أيسر من ذلك. فلو رضوا أن نضاعف لهم ما أعطينا مرارا، كان أهون علينا». فقال سيدى لعبادة: «أبى القوم فماذا ترى؟.. راجع أصحابك على أن نعطيهم فى مدتكم هذه ما تمنيتم، وتنصرفون».

فقال عبادة وأصحابه: «لا». فقال سيدى لأرباب مجلسه: «أطيعونى وأجيبوا القوم الى حل من هذه الحلول الثلاثة.. فوالله ما لكم بهم طاقة، ولئن لم نجبهم اليها طائعين لنجيبنهم الى ما هو أعظم كارهين».

فقالوا: «وأى الحلول نجيبهم اليها»؟ قال: «أما دخولكم فى غير دينكم، فلا يسلم أحدكم به. وأما قتالهم فأنا أسلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم، فلابد من الحل الأخير». قالوا: «فنكون لهم عبيدا أبدا». قال: «نعم تكونون عبيدا فى بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وأولادكم.. فأطيعونى قبل أن تندموا».. فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه.

فقال سيدى لذلك الأسود: «قل للأمير أن يجتمع بنا، فنكتب شروط الصلح». فخرج الوفد. وفى أصيل ذلك اليوم جاء عمرو فاستقبله سيدى، ولم يأت المساء حتى كتبوا شروط الصلح بينهما باللغتين وأمضاها الفريقان، وقد تمكنت من استنساخها وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم، لا يزيد شىء فى ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليه ممن جنى نصرتهم، فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة، وأن نقص

نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، ويخرج من سلطاننا، وعليهم ما عليهم اثلاثا فى كل ثلث ما عليهم، على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين على النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على أن يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر وهذا نص الكتاب».

ولما كتبت الشروط على هذه الصورة قرئت على الحضور من القبط والعرب باللغتين، فتصافح الفريقان وصاروا جميعا يدا واحدة، ثم كتب سيدى الى البطريرك حاكم الإسكندرية يخبره بالأمر ولا ندرى ماذا يكون جوابه».

وفيما كان مرقس يتكلم، كانت ارمانوسة وبربارة ترقبان اركاديوس وما يبدو منه.. أما هو فكان مصغيا الى مرقس وقلبه يتقطع ويكاد يتميز غيظا، حتى سمع شروط الصلح وإن العرب والقبط تصافحوا مع ما تخلل كلام المقوقس من تثبيط عزائم رجاله، فوثب بغتة ونادى: «ياللعار.. قد قضى الأمر يا ارمانوسة، ولم يبق لى مقام فى هذه البلاد. فها قد أتم والدك ما كان يبغيه من صلح العرب، ولم تبق لنا حيلة في دفاعهم هنا. وليس فى طاقتى أن أشاهد والدك وقد تحققت يقينا الآن انه هو الذى ساعد هؤلاء العرب على فتح الحصن واخراج جندنا منه، فالاقامة هنا لا أستطيعها. وقد عاهدتك وأقسمت لك الايمان المعظمة ألا أفارقك بعد وقعة الحصن، فها قد انتهت الوقعة فنحن جسد واحد.. وبقاؤنا هنا مستحيل وخصوصاً تحت سلطة هؤلاء البدو. وإذا ذهبنا الى الإسكندرية، فلا آمن من غضب والدى لأنه لم يجهل مساعى والدك، فلا يرضى ببقائنا معا.. فما الحيلة إذن؟».

قالت: «انى رهينة أمرك».

قال: «اعلمى يا ارمانوسة أن والدك قد ارتكبت خيانة لن تمحو

ذكراها الأيام، لأنها ستؤول الى خروج وادى النيل من أيدينا الى أيدى العرب. وإذا عرف هؤلاء أن يحافظوا عليه، طالت اقامتهم فيه الى قرون طويلة، لأنه من أحسن بلاد الله تربة وأكثرها خصبا.. فجعلها أبوك غنيمة باردة للعرب، وأصبحت أسرة الروم ومنازلهم وأملاكهم فى قبضة هؤلاء العربان.. انها خيانة كبيرة لا أستطيع صبرا على تحملها، فإقامتى معه ضرب من المستحيل. ولولا حبك الراسخ فى هذا القلب، لسعيت الى قتله بحد هذا الحسام».

وكانت ارمانوسة فى أثناء كلام اركاديوس مطرقة خجلاً لما أتاه والدها، وكأنها كانت فى غفلة وأفاقت.. فأدركت عظم تلك الخيانة.. فلما سمعت كلام اركاديوس بشأنه، لم تبد جوابا..

فأتم هو كلامه قائلا: «ولكننى لن أمسه بضرر اكراما لعينى ارمانوسة. وطالما دافعت عنه أمام والدى، وكثيرا ما غالطته وأنا عالم بتلك الخيانة.. فكأنى شاركته فيها ،وعلى أى حال فإنى لا أصبر على جواره، فإذا أطعتنى هجرنا هذه البلاد وأقمنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد الى أن يقضى الله بما يشاء».

فقالت: «انى معك حيثما توجهت».

فقال: «أما والأمر كذلك، فلنفعل ما نفعله بعقل وروية.. فنحن الآن متحدان قلبا وقالبا، ولكن اتحادنا لا يتم الا بالروابط التقليدية، فلندع قسيسا يتمم عقد قراننا على عجل».

وكان مرقص وبربارة فى أثناء الحديث شاخصين ليريا ماذا تكون النتيجة، ثم ظهر على وجهيهما انهما استحسنا الرأى.. فأسرع مرقس فجاء بقسيس منف، فصلى عليهما وباركهما. فلما تمت صلاة الإكليل، قال مرقس: «وأنا لا إقامة لى هنا بعد الآن فهل تسمحان لى – إذا ذهبتما – بأن أكون فى خدمتكما» ؟

تبكيت الضمير

ثم خلا اركاديوس بأرمانوسة للتشاور فى أى مكان يذهبان اليه، فاستقر رأيهما على الذهاب الى بلد لا يعرفهما فيه أحد. وفجأة هب

أركاديوس بغتة ورفع يده الى صدره، وجعل يبحث بين أثوابه كأنه أضاع شيئا ثمينا .. فنظرت ارمانوسة اليه فرأت البغتة تعلو وجهه فقالت : «مابالك ياحبيبى.. ماذا حدث؟» .

قال : «لقد أضعت الصليب الذى أهديتنى اياه، وقد كان معلقا في صدرى بين أثوابى حتى ليلة مجيئى اليك.. ونسيته هناك. وانى لأتشاءم أن نجتمع ويضيع الصليب»..

قالت : «وكيف تستطيع الوصول اليه ، ودخولك الحصن بعد احتلال العرب أصبح خطرا جدا» .

قال : أرى أن أصطحب مرقس الى الدير فهم يعرفون أنه من أتباعك، فلا يشتبهون فيه . وألبس أنا لباسا مثل لباسه، فندخل معا للتفتيش عن الصليب. وغدا أو بعد غد تلحقين بى حيث أكون فى انتظارك فى عين شمس ومعى كل المعدات اللازمة، فنسير معا الى حيث نريد» .

البغتة

وفى صباح اليوم التالى سمعت أرمانوسة لغطا ودخلت عليها بربارة فقالت لها : «ماوراءك يابربارة؟»

قالت : «لقد جاء المبشرون بقدوم سيدى المقوقس الآن» ..

فبغتت أرمانوسة، وصاحت : «لقد جاء .. أواه ما الذى جاء به؟.. ما العمل يابربارة؟.. إنى أشعر بارتعاش وضعف وخفقان، وكنت قد ارتحت وأنا أصلى لأنى توسلت الى الله أن يدبر مايراه مناسبا، وألقيت حملى على السيد المسيح» .. فقالت لها بربارة: «فلعل الله دبر مافيه الخير.. سكنى روعك» .

فما لبثت أن سمعت وقع أقدامه وقرع عصاه وصوت سعاله فى الدار، فازداد خفقان قلبها وتحفزت للقيام وركبتاها ترتجفان، واذا به قد دخل.. وحالما رآها أسرع إليها وضمها إلى صدره وقبلها. أما هى فألقت بنفسها الى صدره، فاشتمت رائحته وتذكرت حنوه فهاج فيها الانعطاف نحوه، وتذكرت ماهى فيه من مخالفته مما لا يعلمه. فغلب

عليها البكاء فجعلت تبكى، ولم تعد تتمالك عن الشهيق. فبكى والدها وهو يعجب لحالها، وكان يحسبها تبكى بكاء الفرح.. فلما طال بكاؤها سألها عما يدعوها الى ذلك.. فلم تجب.

أما بربارة فجعلت تلتمس الأعذار لبكاء ارمانوسة وتحذرها خلسة أن لاتقول شيئا وقالت للمقوقس : «ان طول غيابك ياسيدى هو سبب هذا البكاء»..

قال : «ولكنكم تعلمون أن ليس علينا خطر من هذه الحرب!» .

قالت : «لم نكن نخشى الخطر، ولكننا افتقدناك كثيرا» .

قال : «وهذا ما أشكوه أنا أيضا، ولذلك فإنى اذا سرت الى مكان يطول غيابى فيه فسوف اصطحبها معى» .

قالت : «عسى ألا يحدث بعد اليوم سفر طويل» . فابتسم وقال : «لابد من السفر وانما أتيت لنسير معا الى الاسكندرية»..

فخفق قلب ارمانوسة وعلا وجهها الاحمرار بغتة، ثم امتقع لونها حيرة ووجلا، وأدركت بربارة ذلك عليها فقالت للمقوقس : «وما الذى يدعو الى هذا السفر يامولاى ؟» .

قال : «العرب الذين دخلنا فى ذمتهم وأنقذونا من ظلم الروم قائمون غدا الى الأسكندرية لفتحها، وقد طلبوا منى أن ارافقهم اليها لنعد لهم المؤونة ونسهل وسائل النقل. وبالنظر لما قاسيته بسبب بعدى عن أرمانوسة ، جئت لأصطحبها، ولا خطر علينا لأننا سنكون بعيدين عن مواقع الحرب» .

فلما سمعت أرمانوسة ذلك زادت حيرتها، ولبثت صامتة ، وقالت فى نفسها: «لعل الله قد دبر ذلك لخيرى، ولكنها لم تستطع أن ترى فى السفر خيرا، وهو سيبعدها عن أركاديوس، فقالت لوالدها: «إنى ذاهبة معك» .

نادى أحد الحراس، وأمره بإعداد القوارب. فلما خرج قالت ارمانوسة: «وما العمل يابربارة بأركاديوس ؟» ، قالت : «نترك له خبرا كى يوافينا إلى الاسكندرية، فإن العرب لايلبثون أن يفتحوها» .

وفى الصباح التالى ، بعث المقوقس أرمانوسة وبربارة ومعهما بعض الحاشية للحماية والخدمة فى سفن تسير فى النيل، وقال انه سيوافيهم فى مريوط. وفى الضحى أقلع العرب والمقوقس وحاشيته قاصدين الاسكندرية ، وكان المقوقس يتقدم العرب مسافة يوم أو نحوه ، ليصلح الجسور ويمهد الطرق ويهيىء ما يحتاجون اليه من المؤونة ووسائل النقل ، والروم يفرون أمامهم الى الأسكندرية. وهى آخر ملجأ يلجأون اليه .

اركاديوس فى المعلقة

أما أركاديوس فإنه تنكر بلباس جند القبط واصطحب مرقس الى حجرته التى كان ينام فيها بالقرب من كنيسة المعلقة فمرا بالكنيسة، وكان اركاديوس يتوقع أن يراها خرابا محطمة الأيقونات متهدمة المذابح.. ولكنه بغت عندما رآها ما تزال سالمة كما هى، والمسلمون فضلا عن الأقباط يدخلونها ويخرجون منها بكل احترام ووقار، فعظم أمر المسلمين فى نفسه. وأما مرقس فلم يكن أقل دهشة، لأنه لم ينس ما فعله جند الروم فى تلك الكنيسة عندما جاءوا لاحتلال الحصن منذ بضعة أشهر وأركاديوس معهم .. فحدثته نفسه أن يذكر أركاديوس بذلك فمشى الاثنان فى الكنيسة لا يعترضهما أحد لأن أكثر الناس هناك يعرفون مرقس لتقربه من المقوقس ولدخوله معكسرهم مرارا .. وفيما هما ماشيان لقيتهما الراهبة التى كانت حفظت كتاب البطريرك بنيامين عندها ثم أخذته بربارة. فلما رأت مرقس هشت له واستقبلته وهى تبتسم مستبشرة ، فسلم عليها وسألها عن حال الراهبات .

قالت : «نشكر الله على نجاتنا من جماعة الروم (ولم تكن تعلم أن رفيقه رومى) وأبشرك يابنى ان البطريرك بنيامين حبيبنا التقى الورع سيكون هنا بعد قليل» ، فأراد مرقس التجاهل والمغالطة إخفاء لقصة ذلك البطريرك ، فقال لها : «كيف رأيت هؤلاء العرب ومعاملتهم ؟»

قالت: «إنهم من خيرة النـــاس، وقـد كنت أخشى أن يفعلوا في هذه الكنيسة مثل ما فعل الروم يوم دخولها.. فمـا شعرت الا والأمير قادم الينا بنفسه يطمئننا ويخفف عنـــا ويقول: لا بأس عليكم.. فلمـا أنست فيـه ذلك اللطف دعوت له وطلبت اليه أن يستقدم الينا البطريرك بنيامين، فوعدنى بذلك حفظه الله وأدام سلطة العادلين».

وكان أركاديوس يسمع كلامها وهو يكاد يتقد غضبا، ولكنه علم أن مجاهرته بحالة لا تخلو من الخطر الشديد فسكت .. ولكنه شعر بما كان يقاسيه الأقباط من العنف والاستبداد فى أيام دولتهم. ومازلا سائرين حتى دخلا الغرفة وبحثا فيمـا بقى من الأثاث، فـوجدا السلسلة والصليب فى أحد أركان الحجرة، فتناولها أركاديوس وهم راجعا وكان الليل قد أسدل نقابه. وفى اليوم التالى ارسل مرقس الى أرمانوسة وكانت قد خرجت من منف ..

فقال أركاديوس: «أعلم يامرقس أنى سأعهد بأمر أرمانوسة اليك، وها أنا ذاهب الى الاسكندرية لعلى ألقى والدى هناك أو أجـده قـد يئس من حياتى وسافر الى القسطنطينية، وعلى كل حال فإننى سأقيم فى معسكر الروم أحارب معهم».

فتهيب مرقس منظره وقال له: «لم تخبرنى ياسيدى عن السبيل الذى أستطيع أن أتصل بك عن طريقه»، فقال: «دعنى يامرقس.. إنى أفكر فيما أجيب به والدى عن سبب تغيبى عن الحصن».

قال مرقس: «قل لهم انك علمت بتواطؤ القبط والعرب، وأنى أنا الذى أنبأتك بذلك.. فلم تصدقنى.، فخرجت بك متنكرا الى منزل المقوقس لأسمعك ذلك بأذنك. فاتفقت معى على أن أكون جاسوسا لك فى معسكر العرب آتيك بأخبارهم. فإذا أخبرتهم بذلك صاروا يتوقعون مجيئى، فإذا جئت بعدئذ باسمك عرفوا أننى جاسوسك فلا يشتبهون فى».

فسطاط عمرو

قال أركاديوس: «نعم الرأى رأيك يامرقس.. استودعك الله». وركب جواده وسار قاصدا الاسكندرية، وقد عاوده الأمل فى الفوز على العرب والأخذ بالثأر.

أما مرقس، فتوجه نحو معسكر العرب حيث كان بالقرب من حصن بابل فى المكان الذى فيه جامع عمـرو الآن، فرأى الأرض مقفرة ولكنه رأى فسطاط عمرو مازال منصوبا فى مكانه لا يحرسه أحد.. فعجب لذلك ومشى حتى بلغ الفسطاط. فإذا هو خال ليس فيه غير بعض اليمام المعشش فى سقفه او فى بعض ثنايا الجدران، فوقف ينظر يمنة ويسرة، فرأى رجلاً يقترب نحوه عرف أنه من الذين يقومون بخدمة الجند من تحطيب واستقاء ونحو ذلك. وصاح فى مرقس أن يخرج من الفسطاط حالا، فعجب لذلك وخرج ينتظر وصوله. فلما وصل قال بلغته العربية المكسرة مما كان قد تعلمه فى تلك الأثناء: «ومـــاذا عـسى أن يكون من أمـر هذه الطيـور وهذا الفسطاط ؟» ..

قال: «ان مولانا الأمير أمر ببقاء الفسطاط محافظة على حياة هذه الطيور، لأنها كانت معششة فيه يوم عزمنا على الرحيل. فلم يشأ الأمير عمرو تقويض هذه الخيمة رفقا بصغار هذه الطيور. وبعد أن أقلع الجند فى هذا الصباح وساروا خاف أن يعتدى أحد المارة على هذا الفسطاط لعدم علمه بسبب بقائه، فأمرنى بالرجوع والاقامة هنا ريثما يعود من الاسكندرية ظافرا ان شاء الله».

فـأعـجب مـرقس بذلك وازداد مـيـلا الى المسلمين والرضوخ لسلطانهم ..

ثم ودع الرجل وسار مسرعا على جواده، فأدرك العرب قبل أن تغرب الشمس وقد حطـــوا رحالهم للمبيت.. فوجـه انتباهه خاصة نحو خيمة سيده فلم يرها، فسأل عنه فقيل له انه على بضعة أميال فى المقدمة، فأسرع حتى وصل إلى مضربه وقد خيم الغسق.. فلم ير

أحدا غير الحاشية، فسأل عن المقوقس وأهله فأخبروه أنه تحول إلى إحدى القرى يخابر شيوخها فى شأن إعداد الرجال لخدمة العرب فيما يحتاجون إليه فى أثناء مسيرهم، لأن رجاله الخصوصيين لا يكفون، وقد أرسل جانباً منهم إلى بعض البلاد فى مهام خاصة.

فقال: «وأين السيدة أرمانوسة؟»

قالوا: «انه أرسلها مع خادمتها فى سفينة إلى مريوط فى ضواحى الاسكندرية لتقيم مع بعض أهلها ريثما تنتهى الحرب».

أرمانوسة فى مريوط

سبق مرقس إلى مريوط ولما وصلت أرمانوسة ذهبت إلى بيت شيخ البلد فلحقها مرقس، وحكى لها ما تم عليه الاتفاق مع أركاديوس ففكرت قليلا، ثم قالت: «هل ذهب أركاديوس إلى الاسكندرية للحرب ثانية؟...» . قال مرقس: «نعم يا مولاتى.. ولكنه حريص على حياته».

فنظرت إلى بربارة وقالت لها: «ألم يقسم لى أنه لن يشهد حربا؟». فقال مرقس: «العفو يا سيدتى.. وما الذى يفعله وقد رأى نفسه منفردا وأنت مع سيدى المقوقس».

فقالت والدمع يكاد يتناثر من عينيها: «نعم إن الذنب ذنبى.. نعم أنا تركته». ثم أوصته أن يسير إلى الاسكندرية وأن يحتال فى الدخول على أركاديوس ويطمئنه على أرمانوسة. ثم يعود ليطمئنها.

وأصبح فى اليوم التالى، فلبس لباس الروم.. وحمل بيده علما أحمر كان أركاديوس قد أوصاه بحمله ليعرفه به عن بعد فيدعوه إليه. فلما أطل على أسوار الاسكندرية، رأى رجلا خارجا من المدينة يناديه، فأسرع إليه فإذا هو رسول أركاديوس.. كان فى انتظاره ليهديه إلى مكانه. وعندما رآه أركاديوس سأله عن أرمانوسة، فقص عليه خبرها وخبر الجند، فسر لانفرادها عن المعسكر فى مكان أمين، وأوصاه أن يعود إليها ويطمئنها.

وكان البطريرك وقواده قد علموا بقدوم مرقس جاسوس

أركاديوس، وأنه أتاه بأخبار العرب وحركاتهم.. فما كاد يخرج، حتى أنصتوا لسماع ما سيقصه أركاديوس عليهم، فأطلعهم على ما علمه وزاد فيه ووسعه ورتبه.

فقال البطريرك: «يظهر أن جاسوسك عالم بدخائلهم».

قال: «إنه يا مولاى أقرب القبط إلى المقوقس.. وسيأتينا بالأخبار ويطلعنا على عدد جند العرب وكل حركاتهم».

فضحك البطريرك ضحكة ارتج لها بطنه وأجفل سامعوه، وقال: «ماذا عسى أن يكون من أمر هؤلاء البدو الحفاة؟.. ألمثل هؤلاء قد أقمنا المتاريس ونصبنا المجانيق وأعددنا الرجال؟»، قال ذلك وأغرق فى الضحك.. وفى ضحكه معنى لا يدركه من الحضور غير أركاديوس، فاستشاط غيظا لعلمه أنه يوبخه لخروج الحصن من أيديهم إلى تلك الشرذمة من العرب الحفاة.

وبعد بضعة أيام، جاء العرب وعسكروا عند أسوار الإسكندرية وحاصروها، ومرقس ينتقل سرا بين أركاديوس وأرمانوسة.

الوفاء بالنذر

وطال الحصار بضعة أشهر، فمل العرب الانتظار واعتزموا الهجوم وتسلق الأسوار. وبلغ ذلك الخبر أرمانوسة، فخافت على أركاديوس فبعثت إلى مرقس، فلما حضر قالت له: «هل علمت بعزم العرب؟».

قال: «لقد علمت.. وماذا؟»

قالت: «وماذا يجب أن نعمل وأركاديوس معرض للقتل؟».

قال: «أيحتاج مرقس إلى تنبيه؟!».

ثم ودعها وتحول إلى معسكر العرب وعرف مقاصدهم، فعلم إنهم سيهاجمون المدينة فى الصباح باكرا من جانبها الغربى، فعزم على اتخاذ وسيلة ينقذ بها أركاديوس من الخطر، فبادر إليه وعندما التقى به قال له: «إن سيدتى كانت قد نذرت يوم حصار الحصن أن توقد شموعا للعذراء مريم بيدك لكى ينقذك الله من الخطر فتخلصت من ذلك الخطر، والنذر باق لم يوف. وقد رأت سيدتى أمس مريم العذراء

فى حلم وهى تعاتبها فنهضت خائفة من تأخر الوفاء بالنذر، ولما كان عيد السيدة مريم غدا، فأستحلفك بمحبتها أن تسير معى إلى كنيسة العذراء فى الصباح باكرا للوفاء بالنذر».

قال: «وأين هى تلك الكنيسة؟.. وكيف أفارق حصنى؟».

قال: «أما الكنيسة، فهى فى طرف المدينة على مقربة من الرابية التى كانت المكتبة مقامة عليها قبل احتراقها. فإذا أمرت ذهبنا إليها معا وسنعود قبل الضحى، وقد مضى أشهر والعرب ساكنون لايبدون حراكا، فهل يتفق أن يتحركوا اليوم وأنت غائب؟».

فوافقه أركاديوس، وفى فجر الغد ذهبا إلى كنيسة العذراء، واستدعيا القسيس.. فرحب بهما. وأفهمه مرقس أنهما آتيان للوفاء بنذر للعذراء، وأوعز إليه أن يطيل الصلاة لأن الطالب يريد ذلك..

وكان مرقس يحتال فى أثناء الصلاة، فيخرج من الكنيسة فيتسلق الأكمة فوق أنقاض المكتبة فيشرف على الأسوار.. فعلم من حركات الجند هناك أن العرب هاجموا المدينة باكرا جدا ولم يكد يتم القداس حتى علم بانقضاء الهجوم ورجوع العرب عن الأسوار. وما أن فرغ القسيس من صلاته، حتى خرج أكارديوس مسرعا يلتمس السور، وكانت الشمس قد أدركت الضحى، وخرج مرقس معه.. فلم يصلا إلى الشوارع العمومية حتى رأيا الناس فى هرج، وكلهم سائرون يلتمسون القصر.

فبغت أركاديوس وسأل عما وراء هذا الهرج، فأطلعوه على الخبر.. فأسرع يلتمس معقله، وهو يخشى أن يوصف بالجبن. وسار مرقس فى أثره، فمرا بقصر البطريرك فرأيا الناس يتزاحمون رجالا ونساء يسابق بعضهم بعضا كأنهم يتطلعون إلى شىء غريب فى دار القصر، فسأل مرقس عن السبب، فقالوا: «إن ثلاثة من العرب دخلوا سور المدينة.. فقبضوا عليهم وساقوهم إلى الحاكم».

فقال أركاديوس: «وهل دخل العرب الإسكندرية؟».

قالوا: «كلا ولكن هؤلاء الثلاثة دخلوها من ثغرة فى السور، ثم أقفلت الثغرة فظلوا أسرى وتقهقر رفاقهم وانتهى الهجوم»..

فنظر أركاديوس إلى مرقس نظرة مستفهم ولسان حاله يقول: «ما قولك فى هذا الاتفاق الغريب؟». فقال مرقس: «إن الهجوم لم يكن من جانب حصنك. وزد على ذلك أن الوقعة انقضت والعرب رجعوا إلى معسكرهم، وانظر إلى قوادكم كيف تجمعوا إلى القصر لمشاهدة هؤلاء الأسرى.. فهب انك جئت معهم، وأعتقد يا مولاى إن صلاتنا هذا الصباح هى التى حفظت أسوار المدينة، فإن للسيدة العذراء كرامة مشهورة»..

فسكت أركاديوس وتحول إلى الباب الذى يدخل منه كبار الضباط فوسعوا له فدخل، ودخل مرقس معه.. فرأيا صحن القصر غاصا بالناس من الأعيان الوجهاء والضباط والقواد.. فانخرطا فى سلكهم وتطلعا فرأى ثلاثة من العرب فى ثياب متشابهة فى القاعة التى يقيم فيها البطريرك.. وتفرس مرقس فيهم عن بعد، فلم ير غير أقفيتهم.. فلما وصل الناس إلى باب القاعة، لم يأذن الحجاب لأحد غير كبار القواد وفى جملتهم أركاديوس، فأدخل مرقس معه. وجلس الجميع على كراسيهم بين يدى البطريرك، وأوقفوا أولئك الأسرى فى الوسط.

موقف هائل

أما مرقس فحالما وقع نظره على الأسرى عرفهم، فإذا هم عمرو بن العاص ووردان ومسلمة بن مخلد.. فنظر إلى أركاديوس فرآه ينظر إليه كأنه يستدعيه فتقدم نحوه، فهمس أركاديوس فى أذنه: «أليس هذا هو الأمير عمرو بن العاص؟».

قال: «بلى».

فسر أركاديوس لوقوعه فى الأسر.. ولكنه تذكر يوم رآه للمرة الأولى فى بلبيس، وما كان من حمايته لأرمانوسة هناك، وكيف أرسلها إلى والدها سالمة.. فلبث صامتا

أما عمرو ، فكان ينظر إلى البطريرك ويلتفت يمنة ويسرة لا يعبأ بما يبرق أمامه من السيوف ولا ما يتلألأ على رؤوس الجماعة من القلنسوات المزخرفة أو الخوذ اللامعة أو الثياب الموشاة بالألوان الزاهية، ولكنه وقف رابط الجأش ورفيقاه إلى جانبيه.. ونظر بهدوء وسكينة إلى وجوه الجالسين، فعرف مرقس، وتأمل وجه أركاديوس فخيل له أنه يعرفه ولكنه لم يذكر أين رآه.

فصاح البطريرك يطلب الترجمان قائلا: «أين زياد العربى ؟» فدخل زياد، فحالما رآه عمرو عرفه. وكان زياد قد عاد إلى مولاه يحيى النحوى بإيعاز من عمرو منذ فتح الحصن، ليكون له عينا عند الحاجة. فتظاهر زياد بنصرة الروم وهم في حاجة إليه لمعرفته اللسان العربى، فعينوه فى جملة المترجمين. وأمعن زياد النظر فى الجلوس، فرأى أركاديوس ومرقس فتذكر ما مر بهم جميعا أمام حصون بلبيس. ولم يكن فى قلب أحد منهم غل على عمرو لأنه أحسن إليهم جميعا.

فلما جاء زياد، خاطب البطريرك الأسرى بواسطته قائلا: «أنتم أسرى فى أيدينا.. فأخبرونا ما الذى حملكم على قتالنا ؟!».

فأجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت: «أتينا ندعوكم إلى الإسلام فيكون لكم ما لنا، أو أن تدفعوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإلا فلا نستطيع الكف عن قتالكم.. فإن الله يأمرنا بجهاد عدونا إلا إذا أجبتمونا إلى إحدى الخصلتين».

فلما فهم البطريرك قوله، عجب لأنفته وشهامته ،وقد كان يتوقع تذلله واستعطافه، فارتاب فى أمره والتفت إلى أعضاء مجلسه فإذا هم فى مثل حاله، فقال لهم باليونانية: «يظهر من أنفه هذا الرجل وكبر نفسه أنه من وجهاء العرب، وربما كان من كبار قوادهم فلا ينبغى أن نتخلى عن قتله»، ودار الحديث بين القواد فى مثل هذا المعنى، فخاف مرقس أن يقتل عمرو فيفشل جند العرب فيتغلب الروم.. فتدور الدائرة على المقوقس وأرمانوسة، فمال بكليته إلى نجاة عمرو.

وأما أركاديوس فقد عزم على التصريح بما يعلمه عن عمرو.

فتقدم مرقس إليه وخاطبه قائلاً: «تذكر يا مولاى إنه لولا هذا الرجل لكانت سيدتى أرمانوسة إما ترابا، وإما فى قبضة يوقنا الخائن.. فلو تم له القبض عليها لأرسلها إلى القسطنطينية غنيمة باردة». فسكت أركاديوس، ولم يستطع البقاء فى القاعة.. فخرج وظل مرقس وفى قلبه وجل على حياة عمرو. وأما زياد فكان ينظر إلى عمرو بطرف خفى، كأنه يلومه على إبداء تلك الجسارة. وكان وردان يعرف اليونانية، فلما فهم ما قاله البطريرك أحب أن يفهمه لعمرو.. فلم ير أحسن من أن يلكمه منتهرا، فلكمه وصاح فيه: «ما بالك تهذى يا رجل ؟.. ومن أنت حتى تنسب إلى أسيادك ما نسبت؟ من أقامك متكلما عنهم، أنت إلا أحد صعاليكهم ؟».

فسأل البطريرك زيادا عما يقول له وردان، فترجمه للبطريرك وزاد فيه بما يرفع الشبهة عن عمرو، فازداد البطريرك تعجبا لصدور تلك الجسارة من صعلوك، فقال لوردان: «وما غرضكم الآن ؟».

قال: «اعلم يا سيدى أن أميرنا - أعزه الله - أقرب الناس إلى المسالمة، ولكنه يود قبل الانسحاب أن يعقد مجلسا من كبار الجيشين يتفقون على شروط الانسحاب، وإذا أذنت برجوعنا إليه أخبرناه بما لقيناه من حسن الوفادة وكرم الأخلاق».

فضحك البطريرك وقال: «شروط الانسحاب ؟.. أى شروط تريدون ؟.. سوف نعيدكم على أعقابكم القهقرى. قولوا لأميركم إن حامية الاسكندرية ليس فيها أحد من القبط وإنما هى كلها من الروم الأبطال، وليعلم أنه لولا خيانة المقوقس ما استطاع البقاء فى وادى النيل يوما واحدا. ولكن ذلك الخائن سيلقى منا ما يشيب لهوله الأطفال. ووالله ومريم العذراء لأجعلن لحمه ولحم أهله طعاما للأسماك.. عودوا إلى أميركم وأخبروه بذلك».

فهاج غضب عمرو لتلك اللهجة، ولكن زيادا ووردان ومرقس كانوا ينظرون إليه خلسة يلتمسون صبره مخافة أن يصيبه ضرر، فلم

يجبه، فأشار البطريرك أن يخرجوهم فعادوا بهم إلى باب المدينة وأطلقوا سراحهم فنجوا وهم لا يصدقون. أما أركاديوس فإنه التقى بمرقس بعد خروج عمرو، فقال له: «لقد ارتكبت عارا كبيرا لأنه كان فى وسعى أن أقتل أمير هؤلاء العرب ولم أفعل».

فقال مرقس: «كيف تقتله وكنت أسيرا عنده ولم يقتلك؟».

وكان عمرو لما خرج من السور ومعه رفيقاه لم يصدق أنهم نجوا، ولكنه قال: «ألم تر هناك يا وردان رجلا قبطيا كنت أعهده فى خدمة المقوقس، وأخالنى رأيته مرارا؟!».

فقال وردان: «نعم رأيته وعرفته.. فهو مرقس الذى جاءنا مع زياد العربى يوم وصلنا إلى الفرما. ورأيت زيادا وهو يترجم كلامك للبطريرك.. لقد سررت والله بهذا الترجمان لأنى رأيته يترجم ويفسر بما يوافق مصلحتنا، ولكننى رأيت رجلا بالقرب من مرقس لا أظنك عرفته.. أما أنا فأرانى عرفته قبلا، ولعله الرجل الذى قبضنا عليه خارج بلبيس ولم نعرف حقيقته، ثم فر منا أثناء الهجوم.. فيظهر أنه من كبار القواد. ويستدل على كبر نفسه من كتمانه أمرك، ولا ريب فى أنه عرفك وعرف أنك الأمير وتلك مروءة يستحق الثناء عليها»، ووصلوا المعسكر وكان الجند يفتشون عنهم.

الفرار

أما أرمانوسة فكانت تنتظر عودة مرقس، حتى عاد وأنبأها بما كان.. فاطمأن بالها ولكنها ما لبثت أن رأت النجدات تتوالى على العرب، فجاءهم مدد من الخليفة عمر وكان قد استبطأ فتح الاسكندرية، بعد أن طال الحصار أربعة عشر شهرا، وقد مل أهالى الإسكندرية الحصار فأخذوا فى الفرار.

فاستقدمت أرمانوسة مرقس وسألته: «أين أركاديوس؟». قال: «هو فى معقله ثابت لا يتزعزع»..

قالت: «وما الحيلة يا مرقس؟» قال: «لابد لنا أن نقنعه بالعدول عن الدفاع لأنه لا فائدة ترجى منه». قالت: «وكيف ذلك؟»

ففكر قليلا، ثم قال: «إن ذلك يحتاج إلى فصاحة وبيان ونفوذ.. أما أنا فلا أظننى أستطيع إقناعه، ولكننى سأبحث عمن يصلح لهذه المهمة وأعود إليكم بالخبر».

التردد

وأما أركاديوس، فقد ظل ثابت الجأش صابرا على واجباته.. مع علمه أنه لا يستطيع فرارا ولا هو يبغيه، لأن قلبه متعلق بمصر، وذات ليلة قال له أحد الحراس: «إن رجلا أظنه من أعيان الاسكندرية افتقدك وهو فى انتظارك». قال: «ادعه لى».

وعاد الحارس ومعه رجل يؤخذ من مجمل مظهره وحاله أنه زاهد متقشف. فلما دخل، أحس أركاديوس بهيبة تسلطت عليه، فوقف لاستقبال القادم.. وتأمل فى وجهه فلم يذكر أنه يعرفه، ولبث برهة والرجل يتهيأ للكلام، ثم نظر إلى وجه أركاديوس وقال: «ألعلك أركاديوس بن الأعيرج؟».

قال: «نعم.. ومن أنت؟».

قال: «سأخبرك من أنا، ولكنى أستحلفك بشرفك وبمن تحب أن تسمع حديثى إلى آخره.. فإذا لم تر العمل به أطلقت سراحى، فأعود من حيث أتيت.. فهل تعاهدنى على ذلك؟»، فلما سمع أركاديوس استحلافه إياه بمن يحب استأنس به.

وقال: «أعاهدك عليه.. فقل من أنت؟»

قال: «قلت لك يا ولدى إنى سأخبرك عن اسمى، ولكننى ألتمس منك أن تجيب على بعض الأسئلة قبل أن أبوح باسمى، وأنا على كل حال بين يديك». قال: «قل.. واسأل».

فتنحنح الشيخ وقال: «ألست القائد أركاديوس بن الأعيرج قائد حامية الروم من مصر؟»، قال: «قلت لك إنى هو». قال: «وأين والدك؟»، فتأوه أركاديوس وقال: «ذهب إلى القسطنطينية». قال: «ولماذا». قال: «لا أدرى ولعله سيق إليها للمحاكمة بسبب سقوط الحصن فى أيدى العرب وهو قائد حاميته».

قال: «وما ظنك بالاسكندرية؟».

فأطرق أركاديوس برهة يفكر، وهو يحاذر أن يبوح بضعف أمله لئلا يكون الرجل جاسوسا، ثم قال: «لو اجتمعت قلوب القواد، واتحدت كلمتهم وثبتت أقدامهم فإنها تمتنع على جند العرب. ولو كان عددهم ألوف الألوف».

قال: «ذلك ما نؤمن به، ولكننى أسألك عن ظنك فيها وحالها كما ترى.. هل تستطيع دفع العرب؟». فقال: «أظنها تستطيع».

فقال الشيخ: «ومادليلك على ذلك وأنت ترى الناس يهاجرونها، وقد انقسمت كلمتهم وضعف أمرهم.. وما ضعفهم إلا من اختلال حكومتهم وانقسام ملوكهم».

قال متجاهلا: «وأى انقسام تعنى؟».

قال: «أعنى الانقسام الذى وقع بعد وفاة الامبراطور هرقل فى هذه الأثناء، وكثرة دعاة الملك الذين قاموا يطالبون به، فأفضى الأمر بعد الخصام إلى قسطنطين بن هرقل، فقتلوه بالسم بعد مائة يوم.. سقته إياه مارتين امرأة أبيه».

فلما سمع أركاديوس اسم قسطنطين وأنه مات، تذكر أنه منافسه القديم على أرمانوسة. فأتم الشيخ كلامه قائلا: «وأسند الملك بعده لهرقلينة ابنة مارتين المذكورة.. ولم تمض مدة حتى نصب قسطان بن قسطنطين، وهم مع ذلك فى نزاع وتنافس. فتولى كرسى القسطنطينية ثلاثة أباطرة فى وقت واحد أليس ذلك مضعفا للعزيمة موهنا للقوى؟ ما الذى ترجوه من جند هذه حال دولته، كيف يثبت فى ساحة القتال وكيف يقاوم العدة والرجال؟.. وهب مع ذلك أن الإسكندرية صمدت أمام العرب، فهل تستطيعون اخراجهم من مصر والأقباط عون لهم؟».

وكان أركاديوس مطرقا يسمع حديث الشيخ ولا يرى ما يرد به حجته، فلما وصل إلى ذكر القبط خفق قلبه لتذكره أرمانوسة فقال: «لا تذكر القبط، فهم الذين أخرجوا البلاد من أيدينا إلى أيدى هؤلاء

العرب، وهم الذين باعوا دولتهم ووطنهم للغرباء.. ولولا ذلك ما وجد العرب سبيلا إلى وادى النيل».

فتبسّم الشيخ والتفت إلى أركاديوس كأنه يستمهله حتى يتم حديثه، فقال: «نعم يا ولدى إن المقوقس خان دولته وسلّم البلاد لعدوها، ولكنك لو أنصفته لالتمست له عذرا».

فقال: «وأى عذر ألتمسه له وقد خان البلاد خيانة صريحة».

قال: «قلت إنه خان البلاد، ولكنه لم يبعها بثمن.. إن المقوقس خان دولة الروم مضطرا، وهو رومى الأصل مثلنا. فما الذى حمله على الخيانة؟.. أطمع فى مال أو سلطان أم رغبة فى التقرب من صديق أو قريب؟.. كلا إن المقوقس يا ولدى ارتكب جريمة الخيانة، فرارا من الظلم وتخلصا من جور دولتنا واستبداد حكامنا. ما الذى ترجوه من حاكم يسمع عبارات الامتهان بأذنه، ويرى رعيته تهان وتهضم حقوقها أمام عينيه.. ويرى كنائسه تقفل وأيقوناتها تكسر وبطاركتها ينفون ويقتلون وكهنتها يزج بهم فى السجون، وما الذى ترجوه من أمة ذاقت عذاب الموت وقاست الذل والخسف قرونا متوالية؟ أترجو منها الإخلاص والطاعة أم تخشى عصيانها وتمردها؟ فالقبط إنما ابتاعوا حريتهم وراحتهم بتسهيل الفتح لأولئك الفاتحين. ونحن لا ننكر خيانتهم، ولكن العاقل من نظر فى عذر الناس بلا غرض. هب أن القبط حاربوا مع الروم.. فهل كنت تتوقع لنا الفوز؟»..

فرفع أركاديوس رأسه وقال: «نعم كنت أرجوه بغير شك».

قال: «أراك مخطئا وقد رأيت ما حل بالشام وفلسطين والعراق قبلا. إن هؤلاء الحجازيين تآلفوا يدا واحدة على عمل، ففازوا وفتحوا البلاد وأخرجوا الروم من الشام والفرس من العراق. ولا ريب أنها دولة أرسلها الله لاكتساح بقايا الدول الفاسدة من الروم والفرس، فلابد من فوزها إن عاجلا وإن آجلا. أيلام القبط على استبدال نير الرومانيين بنير العرب وقد رأيت الفرق بينهما؟.. فقد بلغنى ان

جندكم لما دخلوا الحصن لحمايته ووصلوا كنيسة المعلقة، أخرجوا راهباتها مهانات وهن مسيحيات مثلهم، والكنيسة مسيحية مثل كنائسهم». فخجل أركاديوس من نفسه لأن رجاله هم الذين فعلوا ذلك، ولكنه تجاهل وظل صامتا.. فأتم الشيخ كلامه قائلا: «أتدرى ماذا فعل العرب عند دخولهم الحصن وقد فتحوه وجاز لهم نهبه؟».

قال وهو يتجاهل: «ماذا فعلوا؟». قال: «دخلوا الكنيسة دخولهم معبدا من معابدهم، فطمأنوا الراهبات وخففوا عنهن وأقروهن فى ديرهن، وكن قد أخرجن منه يوم دخلوكم. وزد على ذلك أنكم نفيتم بنيامين بطريرك القبط، والعرب بعثوا يستقدمونه بكل إكرام ووقار. وأجروا أمام أعينهم أمثولة بالغوا فيها بإظهار الرفق. فقد سمعت أنهم يرفقون بالحيوان فلا يمسونه بضرر، فقد ترك أميرهم عمرو فسطاسه منصوبا بقرب الحصن لأن تقويضه يضر بيمام عشش فيه. أيلام المقوقس لنفوره من الروم وميله إلى العرب؟.. ما الذى يرجوه من هؤلاء الفاتحين لنفسه، إنه لايرجو مالا ولا متاعا ولا منصبا ولا شيئا آخر. ولكنه سيق إلى ذلك بحكم الضرورة، فالعمل نفسه يعد خيانة ولكن فاعله لا يعد خائنا بل منتقما»..

وكان الشيخ يتكلم وشفتاه ترتجفان ولحيته تنتفض وأنامله ترتعش وقد أخذ منه التأثر كل مأخذ، وأركاديوس مطرق يصغى لما يسمعه وهو يفكر فى حقيقة هذا الرجل.. على أنه أنزله من نفسه منزلة كريمة بعد ما سمعه من حديثه، وعظم عليه حال الروم لعلمه إن كلام الشيخ حق لا ريب فيه. فنهض من مجلسه وجعل يمشى فى أرض الحجرة صامتا يفكر وهو حائر، والشيخ جالس كأنه ينتظر ما يبدو من أركاديوس. فوقف أركاديوس وقال: «وما هى النتيجة؟».

قال الشيخ: «النتيجة يا ولدى ألا تلقى بيديك إلى التهلكة بعد أن علمت ما علمته من ضعف الروم وفرارهم. أما أنت بما أعرفه فيك من عزة النفس والبسالة.. فأعلم أنك لاتفر من ساحة الحرب

ولا تسلّم للعدو سلاحك وهى بسالة تمتدح عليها، ولكنها فى مثل هذه الحال تعد جنونا». قال أركاديوس «وماذا أفعل إذن؟».

قال: «أرى أن تتنحّى عن الحرب إلى مكان تأمن فيه على نفسك، فإذا انقضت الحرب بعث أمير العرب يستقدمك إليه معززا مكرما.. فإن الإسكندرية مفتوحة لا محالة، ولا يمضى يومان حتى تكون فى قبضة العرب عنوة». قال ذلك وتأوه، ثم عاد إلى الحديث قائلاً: «تصور يا ولدى إن الإسكندرية أم العلوم ومركز التجارة ومثال العمران ستصير إلى أيدى هؤلاء البدو الخارجين من بلاد قاحلة ليس فيها غير الرمال والأشواك».

فقال أركاديوس: «معاذ الله أن تصير إليهم» فقال: «وهب أنها لا تصير إليهم الآن، فيكون ذلك فى وقعة أخرى – فإذا كنت فى جملة المحاربين، فلا تسمح لك نفسك بالتستر أو الفرار».

فابتدره أركاديوس قائلا: «ولماذا التستر؟ وماالفائدة من الحياة بعد الذى حدث؟.. إن ذلك عار على الرجال».

فتبسم الشيخ وقال: «أراك لا تزال في طور الشباب، ويظهر أنك لا أهل لك ولا امرأة يهمك أمرها. وهب أنك وحيد فى العالم لا تحب أحد ولا أحدا يحبك، فإنى لا أرى فى تنحيك عن هذه الحرب عارا.. بل العار أن تلقى بنفسك إلى الموت. وفى الدنيا أناس يهمهم أمرك يموتون لموتك ويحيون لحياتك. عمن تدافع؟ وماذا ترجو؟.. وقد قلت لك وأنا شيخ قد عركنى الدهر وعركته إن دولة الروم لم يبق لها ظل على مصر والشام، فقد خرجت البلدان من حوزتها لفسادها وخمولها وانقسام رؤسائها على خلافات مذهبية. ولم يكن هذا رأيى منذ الأمس فقط، بل هو قول قلته منذ أعوام، فغضب على حاكمنا اضطهدونى ونفونى».

فاشتاق أركاديوس لمعرفة اسم الشيخ، فقال له: «ألم يأن لك أن تخبرنى عن اسمك؟» فوقف الشيخ وقال: «إنى يحيى النحوى».

فعرفه لأنه كان مشهورا فى الإسكندرية ومن أكبر علمائها، وقد

اضطهده الروم لأنه كان يعقوبى المذهب كالأقباط.. فلما عرفه ازداد احتراما لكلامه.. ثم تقدم الشيخ وودع أركاديوس والتمس الخروج، فأذن له وأوصى أحد الحراس أن يوصله إلى مأمنه.. وعاد إلى حجرته وظل الشيخ ماثلا فى مخيلته وكلامه يرن فى أذنيه، وقضى بقية ليله يفكر فى الأمر ولكنه لم يستطع أن يقرر الفرار. وفى مساء اليوم التالى جاء مرقس، فحالما رآه قال: «ما وراءك ؟، هل من بأس على أرمانوسة ؟».

قال: «لا بأس عليها.. ولكنى آنست منها اليوم شوقا عظيما إليك، وقد مضى الصوم الكبير ونحن فى أسبوع الآلام، وهى تصلى وتتضرع إلى الله أن يحفظك.. فلما أصبحت اليوم، وهو يوم خميس العهد. نهضت مذعورة وفى نفسها شوق شديد لرؤيتك، وتود أن تؤديا فريضة الصلاة غدا فى الكنيسة لأنه يوم الجمعة الكبيرة». فابتدره أركاديوس قائلا: «وأى كنيسة ؟»

قال: «كنيسة القديس بولس» قال: «وأين هى ؟»، قال: «فى مريوط».

قال وقد غضب: «أتريد يا مرقس أن أخرج من السور كما فعلت بى أثناء حصار الحصن ؟.. ذلك لن يكون أبدا».

وبعد برهة تقدم مرقس وقال: «اسمح لى سيدى أن أقول شيئاً»، قال له أركاديوس: «قل يا مرقس».

قال: أذكرك بشخص عاهدت الله أن تحبه وتحافظ على حياته.. فإذا تذكرت ذلك أفعل ما بدا لك».

فلما سمع أركاديوس ذلك التوبيخ اللطيف، أطرق برهة ثم قال: «لا تظن أننى نسيت أرمانوسة أو أنساها أو أتخلى عنها، ولكنه الشرف والمروءة يا مرقس.. ولا أظن أرمانوسة نفسها ترضى أن يكون زوجها جبانا يفر من ساحة الوغى».

قال: «ولكن كيف يكون حالها إذا أصاب الإسكندرية سوءاً. ولا

أخفى عليك أننا نتوقع سقوطها قريبا لأن العرب يتهيئون للهجوم عليها الروم يفرون منها».

فضاق أركاديوس ذرعا من التردد، فأشار إلى سيفه وقال: «أتريد يا مرقس أن أفرّ من الحصن ولا أستحى من حسامى هذا؟.. كيف لا أخجل، بل كيف لا أذوب خجلا أن يقال إنى فعلت ذلك وأنا أركاديوس بن الأعيرج زوج أرمانوسة».

فلما بلغ أركاديوس إلى هذا الحد، ترقرقت الدموع فى عينى مرقس ليقينه بقرب الخطر، وإن العرب سيهاجمون المدينة فى صباح الغد باكرا. فلما رآه أركاديوس يبكى تأثر لغيرته وحنوه وتقدم إليه فأمسكه بيده وقال:«لماذا تبكى يامرقس ؟..هل خفت على أركاديوس من الموت ؟.. ليس الموت يا صاحبى بالأمر الذى يخافه العاقل وإنما يخاف العار.. العار.. وإنى وأيم الله شاكر إحساسك وصداقتك وغيرتك علىّ وعلى أرمانوسة، وإن ذلك لما يطمئن بالى. فإذا انتهى أجلى، فإنك ستكون شديد العناية بأرمانوسة، كثير الرعاية لها». قال ذلك وشرق بدموعه.

أرمانوسة تيأس

أما أرمانوسة، فإنها مكثت بعد ذهاب مرقس يوما كاملا تنتظر عودته. فلما انقضى بعض الليل ولم يأت قلقت، وكانت بربارة أكثر قلقا منها لعلمها بعزم العرب على الهجوم فى صباح الغد – يوم الجمعة – كما أنبأها مرقس.. فاختلست فرصة خرجت فيها من الغرفة إلى الحديقة لعلها ترى مرقس فلما رأته.. فأسرعت إليه فاستقبلها باكيا فخفق قلبها وقالت: «ما الخبر؟» فأنبأها بعزم أركاديوس، وقالت: «لا تدخل على أرمانوسة».

قال: «ولا أنا أريد الدخول، إذ لا أدرى كيف أقابلها.. فإذا سألت عنى قولى لها إنى لم آت بعد، وها أنا ذاهب ألتمس وسيلة لإنقاذ أركاديوس» قالت: «وفقّك الله لمبتغاك» وعادت إلى الغرفة وقد تولاها القلق، فقضت تلك الليلة لم تنم، فلما طلع الفجر نهضت

من فراشها خلسة وهى تظن أرمانوسة نائمة، وخرجت تريد التطلع من رابية تشرف على معسكر المسلمين.. فلم تكد تخرج من باب الحديقة حتى رأت أرمانوسة فى أثرها وقد التفت برداء تنكرت فيه فقالت لها: «ما الذى أخرجك فى مثل هذا الوقت يا سيدتى.. عودى إلى فراشك؟».

فقالت: «هيا بنا نشرف على معسكر العرب من هذه الرابية»، فصعدتا وهما تسمعان أصوات التكبير عميقة لبعدها، فعلمت بربارة أن جند العرب فى حركة.. ولكنها لم تكد تطل حتى تحققت من عزمهم على الهجوم فى تلك الساعة.

وفيما هما فى ذلك، تبين لهما جند المسلمين وقد انقسموا فرقا يتقدم كل فرقة منهم علم أو أعلام وفرسان، وتفرقت الفرق حول المدينة وتقدموا نحو الأسوار مسرعين.

فلما رأت أرمانوسة ذلك قالت: «ويلاه قد تسلقوا الأسوار ودخلوا المدينة.. أين حبيبى أركاديوس.. لقد قتلوه».

أما بربارة فإنها لم تعد تستطيع التجلد لتحققها من بقاء أركاديوس فى الحصن تلك الليلة فبكت.. فلما رأتها أرمانوسة تبكى، سألتها: «ما الذى يبكيك يا بربارة؟.. هل تحققت من الخطر على أركاديوس؟.. آه من هذه العاقبة الوخيمة..!».

ولم تشرق الشمس حتى هم المسلمون بالأسوار. وبعد قليل دخلوا المدينة.

فلما تحققت أرمانوسة من فتح الاسكندرية ودخول المسلمين إليها، لم تعد تستطيع الوقوف لعظم اضطرابها. ثم رأت أشباحاً قادمين عن بعد فخفق قلبها، لعلهم يكونون مرقس أو أحدا من عند أركاديوس. ولكنها كانت تخشى أن تسمع خبرا يكون مكدرا. فلما وصل السابق منهم عرفت أنهم من أتباع والدها، وقد بعث بهم يطمئنها ويبشرها بسقوط الاسكندرية وليمكثوا عندها للحراسة..

فتح الاسكندرية

أما أركاديوس، فكان قد خرج بعد خروج مرقس من عنده لينبىء البطريرك بما اعتزمه العرب فى الصباح التالى، فوصل قصره فلم يجده هناك ولم يعلم أحد مقره.. فألحّ فى طلبه وأرسل عددا من أتباعه للبحث عنه فلم يقفوا له على خبر، فاستدل من ذلك أنه فر من الاسكندرية، فشق الأمر على أركاديوس وقال: «لقد صدق يحيى النحوى.. والله إن الدفاع عن هذه الدولة حرام.. إن الله قضى عليها، فماذا يجدى الدفاع؟». حدثته نفسه أن يخرج هو أيضا، ولكنه علم أنهم سيقولون عنه كما قال عن البطريرك، فعاد إلى حصنه وتهيأ للدفاع.

فلما طلع الفجر أفاق وأطل من مرامى السور، فرأى المسلمين بفرقهم ورماحهم ونبالهم وأتراسهم قد تفرقوا وأمامهم الفرسان يحملون الأعلام ويتأهبون للهجوم، فأمر رجاله بالاستعداد والوقوف عند مراميهم. ولبس درعه وتقلد حسامه وخنجره ووقف ينتظر تقدمهم، فرأى كل فرقة منهم وعلمها أمامها قد سارت إلى ناحية من السور، وظلت فرقة صغيرة متجهة نحو حصنة فأمر رجاله فرموها بالنبال فلم تجبهم، ومازالت تتقدم حتى صارت على مقربة من السور وأمامها بضعة فرسان بالدرع والسيوف. فلما دنوا من السور أمرهم أميرهم فتحولوا إلى جانب من السور يبعد عن معقل أركاديوس، وأخذوا يتسلقونه كأنهم يتسابقون إلى وليمة..

فلما سمع أركاديوس صوت القائد، تنسم منه صوت عمرو بن العاص فقال: «هذا هو قائدهم.. ها قد التقينا فى حومة الوغى وجاز لى قتاله كما قال مرقس، وهو ليس فى أغلال الحديد»، ولكنه لم يتحقق إنه هو بعينه لأنه لم ير وجهه، وكان مغطى بالخوذة والدرع فأطل من المرمى فلم يره. ولكنه رأى العرب قد دخلوا المدينة وقام الصياح فى أنحائها. ورأى أصحاب الصيحة فإذا هم بعض العرب قد دخلوا معقله، فصاح فيهم والسيف مشهر فى يمينه: «أين هو

أمير كم ؟.. فليبارزنى أنا أركاديوس بن الأعيرج».

فما أتى كلامه حتى رأى بدويا مدرعا تقدم نحوه وسيفه مغمد ويداه فارغتان، فنكّس أركاديوس سيفه، وما لبث أن وصل البدوى حتى حسر الدرع عن وجهه وبان من تحته وجه عمرو بن العاص مبتسما، فاستغرب مجيئه على تلك الحال وقال له: «جرد حسامك وعليك بالمبارزة» فلم يفهم عمرو، وكلمه عمرو بالعربية. فلم يفهم أركاديوس.. على أنه تبين من ملامح وجهه إنه جاء مسالما لا محاربا. والتفت عمرو خلفه، فإذا بزياد قد دخل ومعه مرقس. فخاطب عمرو أركاديوس بواسطة زياد قائلا: «إنى لم آت لأقاتل أركاديوس البطل.. إن مثلك لا يقاتل. وقد جئتك وسيفى مغمد لعلمى أن الخيانة ليست من شيمتك».. فعجب أركاديوس لمروءته وقال: «لماذا لم تأتنى محاربا فنتبارز؟»..

قال: «لأنى أشعر بجميل لك على يوم ضمنا وإياك مجلس البطريرك واختلفوا فى حقيقتى، وكنت عالما بى فأغضيت».

وكان أركاديوس كثيرا ما يسمع بوفاء العرب وكرم أخلاقهم حتى اختبر ذلك بنفسه. ونظر إلى مرقس فإذا هو واقف مع زياد، وكل منهما ينظر إلى أركاديوس ويبتسم سرورا بنجاته من الموت. وأدرك أركاديوس إن ذلك كله إنما كان بمساعى مرقس، فوقف يتردد بين الفرح بالنجاة بشرف وعزة نفس والكدر من سقوط الاسكندرية ودخولها فى حوزة المسلمين. أما عمرو، فهم بأركاديوس وصافحه قائلا: «ها نحن نتصافح ونتآخى منذ الآن. واعلم انك صديقنا، ولا تعد نفسك قد أخذت فى الحرب، فإننا جئناك زائرين لنؤدى لك الشكر على جميل سبق لك علينا».

فازداد أركاديوس إعجابا بتلك المروءة وقال: «بورك فيك من شهم، فأوصيك بأهل الاسكندرية خيرا.. لا تدع رجالك يفتكون بهم، فقد كفاهم الأسر». فلما خلا أركاديوس بمرقس قال: «وماذا فعلت يا مرقس؟ كيف حال أرمانوسة؟».

قال: «الحمد لله على سلامتك ياسيدى ها قد رأيت ما تشتهيته نفسى، ولا فضل لى فى ذلك لأن الأمير «عمرو» لأنفته ووفائه شعر بفضلك عليه فعزم على مسالمتك فنجوت من الخطر بشرف بعد أن طلبت أمير العرب للمبارزة فلم يبارزك. أما أرمانوسة فإنها فى قلق عظيم، ولا أدرى ما حل بها فائذن لى بالذهاب إليها لأبشرها بسلامتك».

قال ذلك وخرج، أما أركاديوس وزياد، فدخلا الحجرة.

ثم قال أركاديوس لزياد: «وأين هو سيدك يحيى؟».

قال: «هو مختبىء فى مأمن».

فقال أركاديوس فى نفسه: «هذا هو منتهى الفساد والاختلال. كيف يفوز قوم فى حرب وقوادهم منقسمون وعلماؤهم ناقمون.. إنا لله وإنا إليه راجعون». ولما أيقن بالنجاة عاد إلى مسألة المقوقس وكيف يقيم معه ولكنه أصبح بعد حديث يحيى معه يعذره نوعا ما. وبعد بضع ساعات، عاد عمرو ومرقس، فقال عمرو لأركاديوس: «إذا شئت الخروج إلى أهلك، فإننا مرافقون لك إلى حيث تشاء»، فعجب أركاديوس كيف أن «عمرو» يعلم بعلاقته بأرمانوسة. ولحظ عمرو عليه دهشته فقال: «لاتعجب.. فقد علمت بعلاقتك بأرمانوسة، ويسرنى أن أراكما فى وفاق. ولا تظلم حماك المقوقس فإنه معذور لما تعلم من فساد الحكام، وإذا أردت الخروج إلى عروسك فذلك لك» قال: «نعم.. وسنلتقى هناك»، ثم سأل أركاديوس زيادا هل يعرف بيت الشيخ بمريوط، قال: «نعم» وركبا وسارا قاصدين البيت. فلما أطلا على القرية وأشرفا على بيت الشيخ حيث تقيم أرمانوسة، خفق قلب أركاديوس فلقيهم مرقس وكان خارجا، فلما رآهما عاد ودخل ليبشر أرمانوسة. ثم ترجل أركاديوس فوصل إلى باب القاعة، فلقى فيها جمهوراً من الرجال وفى صدرها يحيى النحوى وبجانبه المقوقس. فلما رآهما اضطرب وتردد فنهض يحيى إليه وقبله، وأمسكه بيده وقدمه إلى المقوقس، فوقف المقوقس وضم أركاديوس إلى صدره وقبّله

قبلة الوالد لولده، فخجل أركاديوس وشعر بتلطف حدة حقده على حميه وهم به فقبّل يده، ثم جلس إلى يمين المقوقس ويحيى بين أيديهما.

فقال يحيى: «لا تعجب يا ولدى من اجتماعنا فى منزل أرمانوسة، فإننا عالمون بما فى نفسك على حميك، وما كان فى نفسه هو على جماعة الروم، وكلاكما معذور، وعلمت بما عقده الله بينك وبين أرمانوسة من روابط الزواج المقدس، فأردنا التوسط بينك وبين حميك ليفهم كل منكما الآخر، فأنت الآن بمنزلة ابنه وهو بمنزلة والدك».

فقال المقوقس: «يعلم الله يا ولدى إننى أطلت البال وصبرت صبر الرجال وأنا رومى الأصل مثلك، ولكننى رأيت حال القبط من الذل فأغثتهم فلم تصغ الدولة لصراخنا ولا سمعت بكاءنا. وهذا أخى يحيى العالم الفاضل شاهد على بذلك، أما أنت فما برحت منذ عرفتك أشهد بشهامتك ومروءتك لأنك لم تأت عملا سيئا».

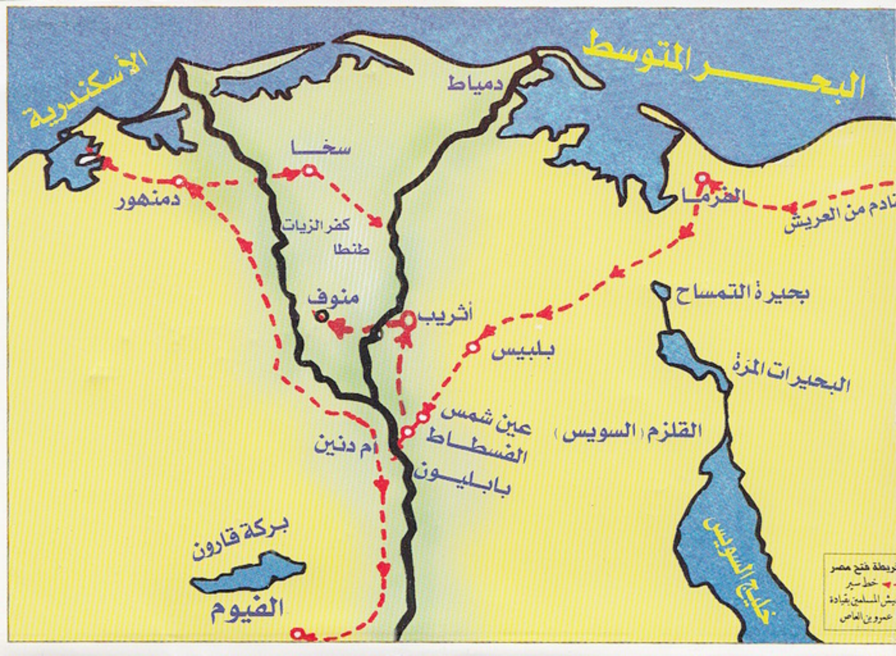
فقال أركاديوس وقد شعر بصفاء قلبه: «نعم ياعمى إنى مثل ولدك.. ويكفى شفيعا لك عندى أنك والد أرمانوسة، ونحن الآن جسد واحد. فقال مرقس: «ما بالكم حجبتم أرمانوسة عنه وحجبتموه عنها».

ولم يتم كلامه حتى دخلت بربارة وأرمانوسة على أثرها وعيناها ذابلتان لما قاسته فى صباح اليوم.. فاستحت من والدها ولم تستطع اظهار عواطفها، فسلّمت على أركاديوس سلاماً مختصرا، فنهض يحيى وأمسك أركاديوس بيده وأمسك المقوقس بيد أرمانوسة، وجعلا يد كل من العروسين بيد الآخر..

فقال يحيى: «ماجمعه الله لا يفرقه إنسان».

وفى صباح الغد، جاءهم عمرو فهنأ العروسين، وأظهر ارتياحه لصداقة أركاديوس. وخيره بين الإقامة بالاسكندرية أو فى أى مدينة أرادها، فاستمهله ريثما يكتب إلى والده. فكتب إليه مع رسول أنفذه

إلى القسطنطينية، فعاد الرسول ينبئه بموت والده فى السجن ظلما بلا محاكمة. فبكاه وكره القسطنطينية وأهلها، وفضّل البقاء فى الاسكندرية، وكان عمرو قد كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، وسأل عن المكان الذى يقيم فيه فكتب إليه: «إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم شتاء ولا صيفا، فمتى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم إليكم قدمت»، وكان بين الإسكندرية والحجاز نهر النيل فانتقل عمرو إلى حصن بابل، وكان الفسطاط الذى تركه هناك لايزال باقيا وقد عشّش فيه اليمام بالمئات، فخيّم حوله ونصب الأعلام، وبنى هناك مدينة سماها الفسطاط، وهى أول عاصمة للمسلمين فى مصر. أما أركاديوس فاختار الاقامة فى الاسكندرية، فعاش مع عروسه فى رغد من العيش ومعهما بربارة ومرقس..



البحر المتوسط
الأسكندرية
دمياط
سخا
دمنهور
كفر الزيات
طنطا
منوف
أثريب
بلبيس
الفرما
قادم من العريش
بحيرة التمساح
البحيرات المرة
عين شمس
الفسطاط
بابليون
ام دنين
القلزم (السويس)
بركة قارون
الفيوم
خليج السويس
خريطة فتح مصر
خط سير
جيش المسلمين بقيادة
عمرو بن العاص

هذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات
تصدرها دار الهلال
بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة